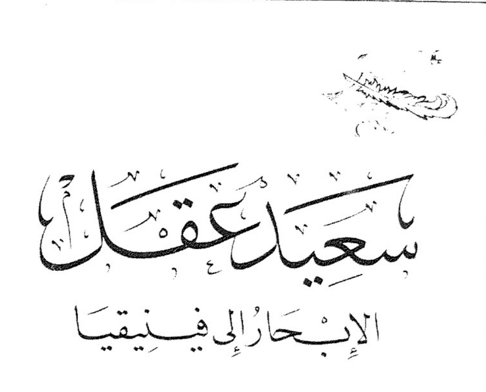
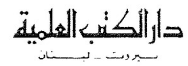
الأعلام من الأدباء والشعراء



سعيد عقل
الإبحار إلى فينيقيا

تأليف
إيمان يوسف بقاعي



بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



تأليف
إيمان يوسف بقاعي



الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣

«لكي يكون التاريـخ محبوبـاً، يلزم تجسيد الظواهر التـاريخية، مثلما تصنـع الأسطورة هذا أحياناً، وأحياناً الحياة نفسها، وأحياناً المفكرون والفنانون العظام»

تولستوي



تمهيد

حوريس[1]: انهض، انهض يا أوزوريس

أنا ولدك حوريس

جئتُ أعيد إليك الحياة

جئتُ أجمعُ عظامك

وأربط عضلاتك

وأصل أعضاءك

أنا حوريس الذي يكون أباه

حوريس يعطيك عيوناً لترى

وآذاناً لتسمع وأقداماً لتسير

وسواعد لتعمل

ها هي ذي أعضاؤك صحيحة

وجسدك ينمو

ودماؤك تدب في عروقك

إن لك دائماً قلبك الحقيقي

قلبك الماضي !

أوزوريس الميت: إني حي، إني حي

(كتاب الموتى).

---

(١) كان حوريس ابن الإله أوزوريس الذي قتل نتيجة مؤامرة «ست» وكان «رع حوارختي» ومعناه: «سيد الجميع» يرأس جلسات المحكمة التي تحاكم «ست» وكان أوزوريس إله الموتى عند المصريين جميعاً. لكن كان لكل مدينة إله محلي لرعاية جبّانتها وكثيراً ما يتخذ شكل «ابن آوى» الحيوان الذي يجوب المناطق الصحراوية ليلاً حيث تقع المقابر كما اتخذ أيضاً شكل الكلب والذئب.

انظر: جفري باوندر ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب ـ عالم المعرفة ١٧٣ ـ مايو/أيار: ١٩٩٣ ـ ص (٤٩ ـ ٥٠).

و «حوريس» ليس إلا «الشباب». يعيد الحياة إلى ماضيه الميت. نعم، هو «الشباب» الذي يكون أباه الوطن. وقد أعطاه بالفعل عيوناً يرى بها غابره العظيم في حريته، وحاضره الذليل في قيود الغرباء، وآذاناً يسمع بها ضحكات السخرية من أفواه الجبناء الذين جاؤوا رقاده [كذا] ويستلبون خيراته، كما أعطاه أقداماً يسير بها كي يثبت لهم أنه حيّ، وسواعد يعمل بها على تشييد الصرح المهدوم!.

إن أعضاء الوطن صحيحة، لم ينقص منها عضو، وها هو ذا جسده يتحرك وينمو، والدم يجري في شرايينه، والشباب على رأسه يصيح:

«إن لك دائماً قلبك الحقيقي.. قلبك الماضي».

ويخيل إليّ: أني أسمع الوطن من كل جانب يلبي النداء ويجيب الشباب الأبناء:

«إني حيّ، إني حيّ».

إني دائماً أؤمن بأن مصر لا يمكن أن تموت، لأن مصر، منذ الأزل، ظلت تعمل وتكدّ آلاف السنين لهدف واحد:

مكافحة الموت.

ولقد فازت مصر ببغيتها. وكلما ظن الموت أنه انتصر، قام «حوريس» من أبنائها يصيح:

«انهض، انهض أيها الوطن! إن لك قلبك. قلبك الحقيقي دائماً.. قلبك الماضي».

وإذا الموت يتراجع أمام صوتٍ مدوٍّ من أعماق الوطن:

«إني حي . . إني!»[1]

أعضاء الوطن صحيحة.

والميت يُبعَثُ من جديد! هذا إن كان ماتَ حقاً!

«الإنسان حيٌّ وليس كالوقواقِ لا ذاكرةَ له»[2]

مَنْ يعيد الحياة إلى الآخر؟. . .

لملم «حوريس» أعضاء والده. أعطاه عيوناً وآذناً وأقداماً وسواعد ودماً فعاشَ.

إحياءٌ أم استحياء؟. . .

فتشت ستناي[3] ـ الأم عن ابنها المشارك في حرب طاحنة فصادفت فخذ سوسروقة الأيسر. رتبت الأعضاء تماماً كما فعل «حوريس» بأعضاء والده.

«كيف أدفنه دون أن أغسله ـ قالت وبدأت تبحث عن ماء ولكنها لم تستطع أن تنقل ماءً من أي مكان في العالم.

وبعد ذلك أخذت تجمع قطرات الندى من الأزهار البرية، ومن فوق الأوراق الخضراء في كفها. وهكذا غسلت جسد سوسروقة بالندى ـ ولم

---

(١) توفيق الحكيم ـ ثورة الشباب ورحلة بين عصرين ـ مركز الطباعة الحديثة ـ بيروت ـ ص ٨٨.

(٢) باغرات شينكوبا ـ البذرة الأخيرة (آخر المهجرين) ترجمة عبد الهادي دهيسات ـ د. محيي الدين سليق ـ مكتبة الشباب ومطبعتها عمان.

(٣) هي أم النارتيين الشراكسة وهي ترمز إلى مكانة المرأة في الملاحم الشركسية قبل الانتقال إلى الأسرة الأبوية (Patriarchal).

يبقَ سوى وجهه. ولم تجد ما يكفي من الندى لغسل وجهه، لأن [أشعة] الشمس كانت قد قويت ولعقت كل الندى.

لم أعد أجد ماءً فماذا أفعل ـ قالت ـ ورقدت فوق ولدها وأخذت تنوح عليه غاسلة بدموعها وجه سوسروقة. وعندما غسلت عينيه، فتح سوسروقة جفنيه. ففرحت ستناي، وقبّلت شفتيه. ففتح سوسروقة فمه وتنهد»[1].

لملم «حوريس» أعضاء والده، فعاشَ.

ولملمت ستناي ـ الأم أعضاء ابنها البطل فعاشَ أيضاً!

إحياءٌ أم استحياء؟...

رفض الواقع المُعاش أم رفض موت الأبطال؟...

جون وليام دن كاتب انكليزي ألّف كتباً شيقة عن الزمن قال فيها «إن الماضي والحاضر والمستقبل توجد متزامنة، كما تثبت أحلامنا»[2].

ويلاحظ الكاتب خورخي لويس بورخيس الأرجنتيني ولادةً ومزاجاً ما يفتنه في قضية العود الأبدي، أو «التكرار الدائري» لكل تاريخ العالم، وهي فكرة عزيزة على نيتشه، وتلك الخاصة بالحلم داخل حلم، وتلك الخاصة بالقرون التي تبدو دقائق والثواني التي تبدو سنوات «المعجزة

---

(١) مختارات من ملاحم نارت الشركسية ـ ترجمة ممدوح قوموق ـ دمشق ـ ستناي وسوسروقة ١٩٨٤ ـ ص ٣٣٩.

(٢) العربي ـ صفر ١٤١٤ هـ ـ أغسطس (آب) ١٩٩٣ م ـ العدد ٤١٧ انظر من ص ٨٨ ـ ٩٤.

السرية» وتلك الخاصة بالطبيعة الهذيانية للعالم. ويحب بورخيس أن يستشهد بنوفالسي:

«سيكون أعظم السحرة ذلك الذي يسحر نفسه إلى درجة يحسب معها أوهامه أشباحاً مستقلة قائمة بذاتها. ألا تكون هذه حالتنا؟...»[1].

هل عودة الأبطال حلم اشتدت فيه رغبتنا حتى أعطيناه دماً وقلباً وساقين وساعدين وجعلناه يحيا؟...

نفخر بالأبطال أينما وجدوا. ننتمي إليهم. نشد وثاق القربى أكثر. نفتش عنهم... نستدعيهم..

انظر إلى ذلك العربي يبعث ماضي أسلافه، يملؤه الفخر والعزة يتحدث عنهم فهو يتحدث عن ذاته. يصبحون هو. أو يصبح هم. لا فرق!

إني امرؤٌ من عُصبَةٍ مشهورةٍ ... حُشُد لهم مجدٌ أشمُّ تليدُ
ألْفوا أباهم سيداً وأعانهم ... كرمٌ وأعمامٌ لهم وجدودُ
إذ كل حيٍّ نابتٍ بأرومةٍ ... نبتَ العِضاهِ فماجدٌ وكسيدُ
نعطي العشيرةَ حقها وحقيقها ... فيها ونغفر ذنبها ونسودُ
وإذا تُحمِّلُنا العشيرةُ ثقلها ... قمنا به وإذا تعودُ نعودُ
وإذا نوافق جرأة أو نجدةً ... كنا سُميَّ بها العدوَّ نكيدُ
بل لا نقول إذا تبَّوأ جيرةً ... إن المحلّة شعبها مكدودُ[2]

---

(١) نفسه.

(٢) المفضليات ـ قصيدة رقم ١٠٤ ـ ص ٣٥٥.

ولنعد إلى أمل دنقل الشاعر العربي المهاجر إلى الماضي ليضيء عبره الحاضر. لنعد إليه في «البكاء بين يدي زرقاء اليمامة» أو «من مذكرات المتنبي» أو «الحداد يليق بقطر الندى» أو «العهد الآتي» أو «من أوراق أبي نواس» أو «أقوال جديدة عن حرب البسوس». ولنعد إلى أدباء الأكراد يتمسكون بتاريخهم وأساطيرهم وأدباء الأرمن والروس والشركس والأتراك وكل القوميات حتى أصغر قومية في الكون.

إحياءً أم استحياء؟...

أجداد أم أبطال؟...

تاريخٌ يُلمَّع للإعادة أو للإضاءة أو للافتخار أو للهروب؟...

العودة إلى لحظات الأبطال تكريس قوميات.

العودة إلى لحظات البطولة تكريس اقليميات.

متى بدأت الرحلة عربياً؟...

«لم يكن التفكير على الصعيد الاقليمي في بلاد العرب وليد الحرب العالمية الأولى. فقد ظهرت بوادر منه منذ أواخر القرن التاسع عشر ولاسيما في مصر وسوريا ولبنان وشمالي افريقيا. لكن التقسيم الذي نشأ عن الحرب العالمية الأولى، كان من طبيعته أن يقوي المشاعر القومية الاقليمية، يعضده في ذلك سياسة الأجنبي المحتل الذي كانت مصلحته مرتبطة دائماً بالتجزئة، مما يحمله في كل حين على تشجيع الكيانات الاقليمية وتغذية روح الانقسام لتتأمن له السيطرة الدائمة.

وهكذا نمت في ظروف ما بين الحربين قوميات اقليمية متعددة أبرزها:

«القومية المصرية، والقومية اللبنانية، والقومية السورية»[1].

الأولى، بدأت مع محمد علي وابنه ابراهيم منادية بدولة مصرية قوية بدل الدول العثمانية المنهارة، وتألقت مع ثورة عرابي واستهوت جماعة من الأدباء والمثقفين مثل:

أحمد أمين (١٨٧٨ ـ ١٩٥٤)
لطفي السيد (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣)
ابراهيم عبد القادر المازني (١٨٨٩ ـ ١٩٤٩)
العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤)
طه حسين (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣)

وغيرهم ولا ننسى طبعاً توفيق الحكيم و«عودة الروح» وغيرها، كما لا ننسى شوقي ومصرياته الشهيرة.

أما القومية السورية، فكانت تسير مع القومية العربية «وكان المفكرون اللبنانيون والسوريون والفلسطينيون يخلطون أحياناً كثيرة ما بين القوميتين العربية والسورية»[2]. ولكنها توضحت بعد الحرب العالمية الأولى، إلى أن ظهر «الحزب السوري القومي» على يد انطون سعادة (١٩٠٤ ـ ١٩٤٩) وذلك عام ١٩٣٢ فتوضحت الصورة ووضعت الأطر الخاصة بكل من القوميتين السورية والعربية.

أما القومية اللبنانية، وهي التي تهمنا هنا، فقد «نشطت بعد الحرب العالمية الأولى لعدة أسباب أهمها:

---

(١) د. أحمد أبو حاقة الالتزام في الشعرب العربي ـ دار العلم للملايين ط ١٩٧٩ ـ ص ١٧٦.
(٢) نفسه ص ١٧٨.

ـ اعلان لبنان الكبير دولة مستقلة منفصلة عن سوريا.

ـ دعم فرنسا للكيان اللبناني الجديد.

ـ شعور جماعة من المفكرين اللبنانيين، بأن للشعب اللبناني ما يميزه من سائر الشعوب العربية المجاورة كوقوعه على البحر المتوسط، وارتباطه بدول أوروبا اللاتينية، ودوره الحضاري في التاريخ الذي تمتد جذوره إلى عهد الفينيقيين منذ آلاف السنين وتعايش الطوائف الكثيرة فيه، وتكوّن أهله من خليط بشري لا يحد، وانطباعهم جميعاً بطابع الاقليم اللبناني الذي يقطنونه[1].

ـ يقول الدكتور كمال الصيلبي:

«لعلّ أول بوادر الانشقاق بين القومية اللبنانية والقومية العربية وقعت بعد ١٩٠٩ بقليل».

ـ وورد في مجلة «أوراق لبنانية» ذكر لكتاب بعنوان: «مسألة لبنان» ظهر في باريس باللغة الفرنسية عام ١٩٠٨ لمؤلفه بولس نجيم تحت اسم مستعار هو «جوبلان» وتذكر المجلة أن جذور القومية اللبنانية تعود إلى تراث قديم من الفينيقيين إلى الشهابيين وغيرهم[2].

ـ والواقع أن الأجنبي دائماً كان يقف أمام اتحاد الأمم ويفرّق الصفوف ويبث الإحن والعداوات بين أبناء الأمة الواحدة فنجد «الجفاء الذي نشب بين الأقباط والمسلمين في مصر سنة ١٩٠٨ وقبلها ما حصل في سورية

---

(١) انظر د. أحمد أبو حاقة ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٢) انظر د. وليم الخازن ـ الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية من مطلع النهضة إلى عام ١٩٣٩ ـ دار المشرق بيروت ص ٤٣٦ ـ ٤٣٩.

(لبنان) ١٨٦٠ وفي الخصومات التي حدثت بين أبناء العرب وبين المسلمين أنفسهم خير دليل على هذا القول»[1]. وهذا ما حدا بالأدباء إلى المناداة بالقومية والوطنية التي تجمع أهل الوطن الواحد وهنا نذكر قول بولس سلامة:

فالعلم في لبنان شد ولاء	وبظل مئذنةٍ وباحة مسجدٍ
ملك البيان وسدرة الأدباء	نهج البلاغة نهجنا وعليُّه

- من أبرز القائلين بالقومية اللبنانية:

شارك قرم (١٨٩٤ - ١٩٦٣) وكذلك ميشال شيحا (١٨١١ - ١٩٥٤) وجواد بولس (١٩٠٩) وسعيد عقل (١٩١٣) ولا ننسى تأثير المفكرين اللبنانيين كالإمام الأوزاعي (٧٠٧ م - ٧٧٤ م) الذي اتسم بالروح اللبنانية السمحة وحيث تمكن من أن «يجعل التعاطف الاقليمي يتغلب على العصبية الدينية»[2]. وذلك حين هب لنصرة النصارى - أبناء وطنه - ضد العباسيين الذين أعملوا يد الظلم والبطش في لبنان «بكل ما أوتيَ من علم وجرأة ويغدو مثالاً للأخوة الجامعة، ورائداً عبقرياً من رواد القومية اللبنانية على مرّ التاريخ»[3].

وبعد:

---

(١) د. يوسف عز الدين - أستاذ الأدب العربي الحديث في جامعة بغداد - الاشتراكية والقومية وأثرهما في الأدب الحديث - معهد البحوث والدراسات العربية - ط ١٩٦٨ - ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) انطون قازان - أدب وأدباء - ج ٢ - الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت ١٩٧٤ - ص ١٤٠.

(٣) نفسه ص ١٣٧.

إن هذه القوميات التي، وإن استمرت بعد الحرب العالمية، لكنها ضعفت. فالقومية المصرية أو الفرعونية «ضعفت كثيراً بظهور الناصرية حتى كادت أن تتلاشى ليطغى عليها التيار القومي العربي، والقومية السورية التي ضعفت أيضاً بعدما فشلت حركتها الانقلابية في لبنان، وكانت قد ضعفت كثيراً من قبل، بظهور البعثية في سوريا والقومية اللبنانية التي تنحصر ضمن الشعب اللبناني بشقيه المقيم والمغترب.

وهذه القوميات، المحلية أو الاقليمية، لا تتعارض كثيراً مع الإطار القومي العربي العام، وليست من الحدة بحيث تقاومه أو تقطع صلتها به، وإنما هي، في الواقع، تتعاون معه ضمن إطار التمايز والصبغة الخاصة.

وكما هي في الحياة، هي أيضاً في الشعر تبرز بمقدار ما يكون الظرف مؤاتياً لها أو باعثاً على ظهورها»[1].

ولا بد أن نذكر تفاعل القوميات بعضها مع بعض حين تتعرض إحدى هذه القوميات إلى ضغط واضطهاد أو حين يتعرض بلدٌ ما إلى استعمار وظلم.

لا بد أن نذكر أيضاً أن المسألة اللبنانية تفاعلت «بوجه عام مع ما كان يصدر في المحافل الدولية من إقرارٍ بحق تقرير المصير للشعوب الواقعة تحت سيطرة السلطنة العثمانية المحتضرة بحسب ما تستدعيه منازع هذه الشعوب وعبقريتها الخاصة، ومن اعتراف بقومياتها، ومن عمل لرقيها، ونظامها، واستقلالها، وعدم تعدي الشعوب الكبيرة عليها»[2].

---

(١) د. أحمد أبو حاقة/الالتزام.

(٢) د. وليم الخازن/الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية ص ٢٣٨.

على كل حال، القومية حُلُمٌ متحمس، يخترق السكون، يخترق جدران الظلم، يوحِّدُ.

القومية بنظر «ريتان»: «روح قبل أي شيء آخر، دعامتاه تراث غني بالذكريات والتقاليد وإرادة واحدة بالحياة المشتركة»[1].

والقومية حسب فوستيل دوكولانج الذي أجاب عام ١٨٧٠ على المؤرخ الألماني مومسن الأستاذ في جامعة برلين والذي كان قد أكد بكتاب خطي وجهه إلى الشعب الايطالي أن مقاطعة الألزاس هي مقاطعة جرمانية مستنداً إلى اعتبارات تمت بصلة إلى العنصرية واللغة:

«إن شرط القومية أن تحافظ على إنسانيتها، وأن تصون المعاني الشامخة والقيم العريقة، وإلا تحولت إلى عصبية ممقوتة وغدت أخطر ما يواجهه العصر»[2].

---

(١) انطون قازان - أدب وأدباء - ج ٢ - ص ١٣٢.
(٢) نفسه - ص ٣٣ - ١٣٤.

الحالم بالمجد

سعيد عقل

١ ـ ولد في زحلة في الرابع من تموز ١٩١٢.

٢ ـ عاش طفولته في بيت ثري مترف، لكنها ما أنجز علومه حتى كان والده قد بدد كل ثروته.

٣ ـ أخذ عن أمه، ادال يزبك من بكفيا، رهافة الحس وقوة الايمان وحب الثقافة وعن والده حبه للمطلق، والكرم.

٤ ـ أتم دروسه الابتدائية والثانوية في الكلية الشرقية التي كانت بإدارة الأخوة المريميين في زحلة.

٥ ـ تخرج ذا ميل إلى الرياضيات التي لا تزال تشغله حتى اليوم. ولم يستطع متابعة دروسه الهندسية لمرض أبقاه طريح الفراش بضعة شهور، ولاضطراره إلى العمل باكراً بسبب وضعه العائلي.

٦ ـ طالع كثيراً حتى وضع كتاباً بعنوان «تاريخ الآداب العالمية». وهو مخطوط أقدم من كل ما نشر له من شعر ونثر.

٧ ـ تأثر بالطبيعة حتى لقد كان أميل إلى الرومنطيقية.

٨ ـ درس في معاهد شتى بين زحلة وبيروت، منها: الكلية الشرقية، معهد الآداب العليا، مدرسة الآداب في الأكاديمية اللبنانية، دار المعلمين ببيروت، الجامعة اللبنانية. لكنه عام ١٩٢٧ ترك المدرسة وانصرف إلى المطالعة، فاطلع على معظم آداب العالم القديم والحديث.

٩ ـ بدأ حياته الفكرية العامة بخطب سياسية، كان أولها ما ألقاه في زحلة في الثالثة عشرة من عمره.

١٠ ـ في الثامنة عشرة، بدأ الكتابة الصحفية في جريدة «الوادي» عام ١٩٣٠، ونشر قصائد بعنوان «انجيل الحب» في جريدة «البرق» دون أن يجمعها فيما بعد بشكل ديوان. وهو لا يعترف بالشعر الذي نظمه قبل العشرين من عمره.

١١ ـ بين ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣، طارت شهرته في لبنان وجواره، كأديب وشاعر، وكسياسي يناضل في سبيل استقلال بلاده وفي عام ١٩٣٢ أنجز كتابه رندلى لكن صدوره تأخر حتى الأربعينات.

١٢ ـ على اثر القائه خطاباً حماسياً في زحلة عام ١٩٣٥، اعتقل وحبس ثلاثة أيام في سجن الرمل ببيروت.

١٣ ـ القى أول محاضرة له في بيروت عام ١٩٣٥، وهي تدور على الشعر. وكانت قد سبقتها مواقف خطابية سياسية في العاصمة.

١٤ ـ في العام نفسه، نشر أبحاثاً عديدة في مجلة «المشرق»، تتناول الشعر والفن عامة، وقد قال فيه الأب لامنس: «لأول مرة نرى مثل هذا البحث في تاريخ الأدب العربي»: المعرض ٢٠-٣-١٩٣٦.

١٥ ـ عام ١٩٣٦ نشرت له أحاديث في الشعر، جمعها رشدي معلوف في جريدة المعرض.

١٦ ـ عام ١٩٣٧ نشرت له أبحاث عديدة في الأدب والشعر في مجلة المكشوف.

١٧ ـ بين ١٩٣٧ و١٩٤٨ انحصر نشاطه في القاء محاضرات فلسفية

وأدبية في معهد الآداب العليا، وفي الندوة اللبنانية تناولت أبرز وجوه المفكرين في العالم من أفلاطون وأرسطو وسقراط والأكويني وغيرهم. وكان ينشر مقالات شتى في مختلف الصحف، ومنها «البشير».

١٨ ـ وفي ١٩٤٨، ١٩٤٩، و١٩٥٣، نشر في «الشراع» مقالات متنوعة في السياسة والأدب والفن والعلم والفلسفة والدين.

١٩ ـ بعد أن جهز للاستقلال سنوات عدة عبر كتاباته ومحاضراته، وساهم فعلياً في استقلال لبنان، تقدم للانتخابات النيابية عام ١٩٤٧ على أساس برنامج انتخابي ظهر في البشير في ٩ أيار ١٩٤٧، وهو يلخص نشاطاته السياسية والوطنية. وفي عام ١٩٥٠ أسس مدرسة ثانوية في زحلة درس فيها الفلسفة والأدب.

٢٠ ـ بين ١٩٥٥ و١٩٦١ كتب في مجلة الصياد ثم انقطع عنها حتى ١٩٦٥، إذ عاد إلى كتابة مقال أسبوعي ونشر قصيدة أسبوعية.

٢١ ـ بين ١٩٦١ وحتى الآن له ثلاثة مقالات أسبوعية في جريدة لسان الحال. كما كتب مقالات تاريخية وفلسفية وأدبية في الأنوار (١٩٥٩ ـ ١٩٦١) والمجالس (١٩٥٦، ١٩٥٧، ١٩٥٨) وفي الأسبوع العربي (١٩٦٣ ـ ١٩٦٤) وفي الجريدة (١٩٦٩ ـ ١٩٧٠).

٢٢ ـ يبلغ معدل المحاضرات والخطب التي يلقيها منذ بضع سنوات حوالى مئتي محاضرة وخطاب سنوياً، ويبلغ ما ألقاه من محاضرات وخطب منذ نصف قرن تقريباً، ثلاثة آلاف محاضرة وخطاب.

٢٣ ـ منذ مطلع حياته الأدبية وهو يحاول القيام بثورة لغوية تتناول الحرف واللغة، وتقضي باعتماد حرف منطقي وعالمي، على اعتبار أن الأبجديات جميعاً هي بنات أبجدية جبيل، وقد شذت عن وضعها المنطقي

الذي كانت عليه يوم وضعها الفينيقيون. أما اللغة، فهو يعتبر أنها تموت عندما تفارق الفم، وأن كل لغـة محكية هي أخصر، وأمـرن، وأجمل، وأسهل. وقدحقق أول خطوة من ثورته اللغوية المزدوجة في «يارا» عـام ١٩٦١. وبعدها بدأ بنشر سلسلة «أجمل كتب العالم» بقصد نشر أجمل ما أنتجه الفكر البشري في لبنان والعالم. وقد صدر منها منذ عام ١٩٦٨ خمسة كتب، قدم لها. وهي:

آيات وصور لشعراء فينيقية ـ دفاع سقراط والكريتون لأفـلاطون ـ روميو وجولييت لشكسبير ـ مرجوحة القمر لصلاح لبكي ـ الانجيـل لمار يوحنا.

٢٤ ـ تمرس سعيد عقل على العطاء منذ طفولته، وشجـع بكتابـاته الكثيرين من الشعراء الناشئين، كما كتب عن رفاقه الكبار. ثم أنشأ في الرابع من تموز عام ١٩٦٢ جائزة شهـرية لمن يـزيد لبنـان جمالاً وخيـراً مقدارها ألف ليرة لبنانية. كما أنشأ عام ١٩٦٤ جائزة باسم والدته ادال عقل، مقدارها ألف ليرة لبنانية، اعطيت مرة كل شهرين لمدة سنة.

٢٥ ـ صاحب مدرسة فكرية، أدبية، سياسية، خاصة، ينتمي إليها كثير من الأدباء ورجال الفكر.

٢٦ ـ له شعر ونثر باللغة الفرنسية يضاهي أجمـل ما كتب في هـذه اللغة.

٢٧ ـ ألف حوالى مائة مسرحية صغيرة، ظهر معظمها في «الشراع»، و «الأنوار».

٢٨ ـ درّس في المدرسة الحربية أيضاً.

٢٩ ـ عام ١٩٨١ تزوج من ليندا جنبلاط الشاعرة باللغة الفرنسية.

٣٠ ـ عام ١٩٩٢ صدرت مؤلفاته الكاملة عن دار نوبلس في بيروت.

ب ـ مؤلفاته المطبوعة

١ ـ بنت يفتاح ١٩٣٥.

٢ ـ المجدلية ١٩٣٧، ١٩٦٠.

٣ ـ قدموس ١٩٤٤، ١٩٤٧، ١٩٦٠.

٤ ـ رندلى ١٩٥٠، ١٩٥٦، ١٩٦٠.

٥ ـ كأس لخمر ١٩٦٠.

٦ ـ أجمل منك؟ لا ١٩٦٠.

٧ ـ لبنان إن حكى ١٩٦٠.

٨ ـ كتاب الورد ١٩٧٢.

٩ ـ قصائد من دفاترها ١٩٧٢.

١٠ ـ الوثيقة التبادعية ١٩٧٦.

١١ ـ L'or est Poèmes ١٩٨١.

١٢ ـ يارا ١٩٨١.

١٣ ـ خماسيات ١٩٨٠.

١٤ ـ خماسيات الصبا ١٩٩١.

العودة إلى فينيقيا!

ردَّني إلى بلادي،
في النياسِمِ الغوادي،
في الشعاع قد تهاوى
عند ربوةٍ ووادِ
من هوايَ طِبْ وطيِّبْ
تُربَها ومن ودادي
مرةً... وُعِدْتُ... خذني
قد ذبلتُ من بُعادِ

إرمِ بي على ضفافٍ
من طفولتي بَدادِ
نهرُها ككفِّ مَنْ أحببتُ
خيِّرٌ وصادِ

لم تزل على وفاءٍ
أنا مِ الوفاءِ زادي
حبِّني هناكَ.. حُبُّ
الحبِّ جرّاحاً فؤادي

مَن أكون؟ مَنْ؟ وعطرٌ
هبَّ من ثرىً جوادِ

شلحُ زنبقٍ أنا اكسرني
على ثرى بلادي[1]

العودة هاجس المغادر.
المغادر جغرافياً، أو المغادر نفسياً!
العودة حلمُ المهجَّر، كلِّ مهجَّر.
والتهجير، لا يعني فقط أن نحمل أشياءنا ونستقلّ المسافات ونرحل.
قد نكون مهجّرين ونحن في منازلنا.
قد نكون أيتاماً ونحن بين آبائنا.
وقد نكون عقّاراً ونحن بين أولادنا وأحفادنا.

الغربة كلمة لها عشرات الوجوه. لكنها، في كل وجوهها، تحمل لنا خيبةً وحزناً.

نرفض الغربة. نستقل أول وسيلة مواصلات ونهرع إلى الوطن إذا كنّا أُبعدنا عنه جغرافياً.

نرفض الغربة. نستقل أول فكرة تخطر في بالنا، جميلة، تبعد الخيبة والحزن ونهرع إلى وطن الايجابيات وطن الفرح، وطن الحلم المشعّ، إذا كنّا أبعدنا عنه بفعل السياسة، وفعل الظلم، وفعل الفقر، وفعل الموت الروحي.

نرفض الغربة. نصرخ مع الصارخ يحدوه الأمل:

«ردّني إلى بلادي».

الغربة ذبولٌ والعودة سريان الدّمِ في الجسد الذي يموتُ.

---

(١) سعيد عقل ـ دلزى ـ مؤسسة نوفل ـ بيروت ـ ١٩٧٣.

«ردّني إلى بلادي».

حيث لم تقلل الغربةُ من وفائي الذي أحمله بين جناحيّ زاداً أقتات به.

«ردّني إلى بلادي».

حيث لا يحلو الحبّ في الغربة، لا يحمل ذلك الطعم المميز. وكيف للحبّ أن يجد له مكاناً في أرض قاحلة، جافة، لا يعرف الماء إليها سبيلاً ولا الحنان والإلفة إلى قلوب أناسها طريقاً؟

«ردّني إلى بلادي».

الزنبق لا يعيش إلا في أرضه. الحلم لا يعيش إلا في فرحه. الحب لا يعيش إلا في توهجه.

نرفض الغربةَ. نصرخ مع الصارخ يحدوه الأمل:

«ردّني إلى بلادي».

لا شيء، على الإطلاق، يحلّ محلّ الوطن!

ووطن شاعرنا لم يتغير عبر الزمان. إنه ذاته له نفس العبق، نفس الشموخ، نفس المكانة، نفس الجمال الأخّاذ.

الوطن هو الأصالةُ!

لا شيء يستطيع أن يحلّ محلّ الأصالةِ!

في الغربةِ نفتش عن خيوط تربطنا بتلك الأرض. عن وجه، عن يد، عن كلمة.

عانت «أوروب» ابنة «اشنّار» ملك صيدون من الغربة بعد أن حملها الحبّ للإله زوش إلى أرض اليونان، فاعتقدت أن الحبَّ وطنٌ، اعتقدت

أن لكلِّ مكان مكاناً بديلاً، ولكل حبٍّ حباً بـديلاً، ولكـل حلمٍ حلماً بديلاً.

لكن الغربة لقنتها درساً مؤلماً.

صفعتها كما صفعت مَن قبلها ممن أُلجؤوا إليها.

صفعتها كما ستظل تصفع، بقسوة، مَنْ يأتي ديارَها حتى آخر الزمان!

«عَفْوَ كفَّيْكِ، يـا مِـري، أنتِ في الغـربـةِ وجـهٌ من عهـدِ لبنـان حاكِ

أنا يومٍ اعتَلقتُ زُوشَ تخليْتُ عن الكـرِّ فوقَ شـطآن صورِ

وتخليْتُ ـ أينَ ضمّةُ أمي! ـ عن هوىً ما سواه لمعُ سرابِ

عن أبٍ سيـدِ الحـواضر عن زنـد شقيقي، قـدمـوسَ، زينِ الشبابِ

عن قرى من زمرّد عـالقات في جـوار الغمام زُرُقِ الضيـاءِ

يتخـطين مسـرحَ الشمسِ، يـركُـزنَ بـلادي عـلى حـدود السماءِ»[1].

التضحية كبيرة وثمنها غالٍ.

لا عزاء للغريب إلا في عودته.

عصا الترحال تكتشف طريقها.

والسفينة تنتظر بفارغ الصبر.

العائدون قسمان: واحد إلى التراب والهواء والجبال والجدران، وآخر إلى الأحلام الزاخرة بالأمنيات.

السفينة تنتظر بفارغ الصبر.

---

(١) سعيد عقل ـ قدموس.

فليرفع العائدون أصواتهم بالأناشيد التي موضوعها «كالصلاة، بقدر ما يتكرر، يصبح أكثر قيمة، أسمى، أغنى»[1].

فليرفع العائدون أصواتهم بأناشيد الوطن!

اللحن يتعالى. . .

الأصوات تنتظم

العائدون ينشدون بفرح ممتزج بمرارة التجربة ـ الغربة:

من يفقد وطنه يفقد كل شيء.

من يفقد وطنه يفقد كل شيء[2]!.

---

(١) رسول حمزاتوف ـ داغستان بلدي ـ دار الجماهير الشعبية ١٩٨٢ ـ الفارابي ـ ص ١٠٢.

(٢) مثل أبخازي.

صورة الوطن

ابــعــثــوني غــداً رســالــةَ حــبٍّ
مــن بــلادي تــفــجّــر الأرضَ رِفْــقــا[1]

مجدُ لبنان يعرفه أبناؤه.
يغمسون أقلامهم فيه ويكتبون.
يحبونه وطنهم، لدرجةٍ قد تصل إلى العبادة أو الانفجار.
وللحب أنــواع، وللحب كلمات، وللحب مواقف، وبـالتأكيـد لن تكون عادية أو حيادية أو بينَ بين!.
مَنْ يعرف الحبَّ الكبير، يعرف الاندفاع الكبير.
من يعرف الحبَّ الصارخ، يعرف العبقرية الصارخة.
من يعرف اشتعال النار، لا تجرؤ المياه من الاقتراب إليه.

غمس سعيد عقل قلمه في حبر الوطن وكتب ومازال! غـريبٌ هذا التوهج الذي لا يتعب. غريب هذا الحماس الذي لم تأخذ الشيخوخة من ناصيته وتجلسه بعد. سافر في كل نقطة ماء يطلّ عليها وطنه، في كل حبة تراب تحتضن جذراً لشجرة، في كل طريق يؤدي إلى قمة زرقاء زمردية معلّقة في جدار الغمام، في كلّ سفينة تحمل الشمس للآخرين، تعطيها بسخاءٍ ككفِّ المحبوب وكغزل المحبوب وكحب المحبوب.

ابــعــثــوني غــداً رســالــةَ حــبٍّ
مــن بــلادي تــفــجّــر الأرضَ رِفــقــا

---

(١) سعيد عقل ـ قدموس!.

فلنفضّ إذن، مع شاعرنا المتوهج، الرسالة:

«لبنان وطن الحقيقة.

هكذا شاء أن يكون. هكذا فَلْيُعْلَنْ!

عهدَ تضجُّ خريطة العالم بانهماكين مِن أجلِّ أحداث التاريخ: اكتناه العقل، والتوغل في ماهية المادة، جماعة من الناس تحيا على الساحل الشرقي من المتوسط ضمن إطار فذ، لا هو تخوم اقليمية، ولا نسب عرقي، ولا سويّ نطقي، ولا وحدة أي تاريخ كان.

إنما هو عجيجٌ كدّ في السير صعداً من غباوة المادة إلى وعي العقل»[1].

لا هو تخوم اقليمية،

ولا نسب عرقي،

ولا سويّ نطقي،

ولا وحده أي تاريخ كان

«لقد عرف لبنان منذ أبعد العصور، وإذا كان قدماء الجغرافيين لم يتفقوا تمام الاتفاق على ضبط حدوده، سواء في طوله أو عرضه، فإن اسمه كان معروفاً منذ فجر التاريخ بأنه: جبل عظيم شامخ»[2].

أنا حسبي أنني من جبلٍ

هو بين الله والأرض كلام[3]

هذا الجبل كان واحداً. لم يكن هناك من تمييز بين لبنان الغربي ولبنان

(١) سعيد عقل - قدموس - المقدمة!.

(٢) انطون قازان - أدب وأدباء - ج ٢ - ص ١٣٤.

(٣) سعيد عقل.

الشرقي «حتى أتى مؤرخو اليونان والرومـان، ففصلوا بين السلسلتـين. ولعلّ أدق من تطرق إلى حدود لبنان، وفصل بين السلسلتين، وذكر سهل البقاع، المؤرخ: بوليب وديودور الصقلي ـ المؤرخ اليوناني الشهير فجعل، هذا الأخير، حدود لبنان ممتدة شمالاً إلى طرابلس وأشار إلى غابات الأرز تكلل قممه.

إن الأمر الأكيد، هو أن هذه المنطقة، هي من أقدم مواطن البشر، وأن التقاليد الفينيقية ترجع أصل مدننا الساحلية كجبيل وبيروت وصيدا وصور إلى الآلهة. فـلا عجب أن يتكون، مـع الزمن، في هـذه البقعة بالذات، اقليم تتضح معالمه وترسم حدوده شيئاً فشيئاً مع الأيام وتطور الأوضاع.

[...] إن مـوقع لبنـان الجغرافي، عـلى مفترق طـرق بـين الشرق والغـرب يربط بـين قارات ثـلاث، حيث تنصهر الحضـارات وتتـلاقى المعتقدات، جعله مميزاً عن سائر البلدان، وأسهم كثيراً في تكوين دوره التـاريخي الخاص الـذي يطبـع الحضارة المتـوسطيـة والانسانيـة بطابعـه الشخصي»[1].

إطارٌ فذٌّ.

عجيجٌ كدٌّ في السير صعداً من غباوة المادة إلى وعي العقل.

فكان لبنان.

لبنان. يعرفه التاريخ. تعرفه البشرية. تعرفه أناشيد البحث عن الجمال:

«هلمي معي من لبنان
أيتها العروس

---

(١) انطون قازان ـ أدب وأدباء ـ ج ٢ ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

معي من لبنان انظري[1]
عنقك كبرجٍ من العاج
وعيناك كبركتي حشبون
عند باب الجماعة
وأنفك كبرج لبنان
الناظر إلى دمشق[2]

لبنان . . .

يعرفه التاريخ . تعرفه البشرية . تعرفه أناشيد البحث عن الجمال! عرف لبنان. عُرِفَ جماله وعُرِف أرزه الخالد.

«يا ابن البشر
ألغِزْ لغزاً
ومثِّل مثلاً
لآل إسرائيل
وقل هكذا:
قال السيد الرب
إن النسر العظيم
ذا الجناحين العظيمين
الطويل القوادم
الممتلىء ريشاً

(١) سليمان الحكيم: نشيد الأناشيد. ٤ : ٨.
(٢) سليمان الحكيم: نشيد الأناشيد. ٧ : ٤.

الكثيرَ الألوان

قد أتى لبنان

وأخذ ناصية الأرز[1]

وللأرز مكانة خاصة في العهد القديم. صورته من أروع الصور في الكتاب المقدس. «إنه يمتاز عن كل الأشجار بقوّته، بمتانته، بعدم تعرضه للانكسار، فيعلو متشامخاً، ويغرز جذوره إلى عمق عظيم، وبكل شجاعةٍ وهدوءٍ يتحدى العواصف الهوج، وتظل أوراقه خضراء يانعة، في فصل الشتاء، حتى تسقط كل أوراق الأشجار الباقية»[2].

الأرز رمز لبنان.

قدموس رمز لبنان.

إنهما يعنيان القوة والشموخ والأصالة:

«أنا أدرى المَلا بغضبةِ قدموسَ وجسمٍ من صخرِ لبنانَ قدَّهْ
طالما استشرفَتْهُ في الأرز عَيْني يافعاً تفجر الفتوة زندَه»[3].

إطارٌ فذٌّ. بلدٌ صغيرٌ لكنه بلدٌ ينشر صوته في كل العالم.

ومن الموطن الصغير نرودُ الأرضَ
نذري، في كَل شطٍّ، قرانا
نتحدى الدّنيا شعوباً وأمصاراً
ونبني - أنّى نشأ - لبنانا[4]

---

(1) حزقيال: ١٧ - ٢ و ٣.

(2) كمال يوسف الحاج - موجز الفلسفة اللبنانية - ١٩٧٤ - ص ١٩٣.

(3) سعيد عقل - قدموس.

(4) سعيد عقل - قدموس.

«عجيجٌ كدّ في السير صعداً من غباوة المادة إلى وعي العقل».
فلنتابع قراءة الرسالة:

«ما أمتنا بأمّة أخذاً بما تعارفت عليه السياسة.. حتى إذا كان المقصود بالأمة، جماعة من الناس، قادرة، نيّرة، محبّة، فنجهر، حينئذٍ، بأنه، إن لم يكنها لبنان بمطلق معنى، فقد راح أكثر من كل بلدٍ آخر يتجه هذا الاتجاه»[1].

لقد مضى رينان «Renan» وهَوْزِر وبول هنري يحددون الأمة ليس بالأرض واللغة والعِرق فقط، ولا بالدين والتاريخ وإرادة العيش معاً فحسب، بل قبل هذا وأبعد منه، بما مؤدّاه:

«الأمة إن هي إلا نفس، إلا مبدأ روحي، وهذا يوافق ما نحدّد به لبنان أو الأمة اللبنانية بأنها مواقف روحية أو مساحة حضارية.

ويكوّن هذا المبدأ الروحي عاملان لا ينفصلان:

واحد في الماضي وهو امتلاك مشترك لميراث غني بالذكريات،

وآخر في الحاضر، قوامه الرضا المتبادَل ورغبة العيش سوي. و[...] التطلع إلى غدٍ أفضل»..[2].

ما وطننا وطن كما يُتعارَف عليه.
وما أمتنا أمة كما يُتعارَف عليها.
ولكنه، وطن مميز وأمة مميزة.
«لبنان وطن للحقيقة. هكذا شاء أن يكون. هكذا فليعلن».

---

(١) مقدمة قدموس.
(٢) لويس أبي عتمة ـ كلمات ومناسبات ـ ١٩٧٧ ـ زحلة ـ ص ٦٣ ـ ٦٤.

إن للمشيئة المرتبة الأولى:

«شأْ تزلزِلْ دنيا، وشَأْ تبنِ دنيا»[1]

الوطن أمٌّ. والأمّة أمٌّ أيضاً.

يقول ابن فارس: «وأما الهمزة والميم فأصل واحد، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين، وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة وهي: القامة، والحين، والقصد.

يقال: أَمَت المرأة تَؤُمُ أمومةً. صارت أموماً.

وأمت ولداً: صارت له كالأم تغذوه وتربيه.

يقول الشاعر:

تؤمهمو وتأبوهمو جميعاً
كما قد السُّيور من الأديم

وأمَّ القوم وبهم أمّاً وإمامةً: تقدمهم.

يقول جرير:

خلائق بعضهم فيها كبعضٍ
يؤمُّ صغيرَهم فيها الكبيرُ

وأمّ الناس إمامة: صلى بهم إماماً.

وفي الحديث الشريف: «إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم، وأحقهم بالإمامة أقرؤهم».

و.. أمّ فلاناً وإليه أماً: قصده.

---

(١) قدموس.

يقول أبو تمام:

إذا أمه العافون ألفوا حياضه
ملاء، وألفوا روضه غير مجدب

والعافون: طلّاب الرزق وأصحاب الحاجات.

ويقال: ائتم بفلان: اقتدى به.

وائتم به القوم: جعلوه إمامهم.

وتأمم بالتراب: تيمم.

وتأمم فلاناً: قصده، ومنه كلام كعب بن مالك:

«وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ».

وقد أضيف إلى كل المعاني السابقة معنى محدث، يقال: أمّم المرفق والشركة تأميماً: جعلها ملكاً للأمة.

ومن الجذر نفسه جاءت «الأم» بمعنى الوالدة. وتطلق أيضاً على الجدة. يقال: حواء أم البشر، وفيها أربع لغات:

أم، وإم، وأمة، وأمّهة.

وأم القُرى: مكة.

وأم القِرى: النار.

وأم الكتاب: فاتحته.

ومن الجذر نفسه: الأُمم: القُرب، والقريب المتداول، والشيء اليسير الهين، والعظيم، والوسط، والبيّن من الأمر.

والأمّةُ: الجماعة. وفي القرآن الكريم: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾.

وهي أيضاً: الجنس من كل حيّ، والجيل والقرن من الناس.
يقال: قد مضت أمم.
وفي القرآن الكريم: ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم﴾.
والأمة أيضاً: الرجل الذي لا نظير له، والجامع للخير.
وفي القرآن الكريم: ﴿إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾.
والأمة أيضاً: الدين والملّة. يقال: فلان لا أمة له.
ويقول النابغة:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً
وهل يأثمنّ ذو أمة وهو طائع

والأمة: السنّة والطريقة، والحين والزمان، والوالدة ـ لغة ـ في الأم ومَعْلَمُ الحسن من الوجه، والملك، والطاعة، والنشاط، ومعظم الشيء.

والأمة ـ في القانون: جماعة من الناس تجمعهم عناصر مشتركة كوحدة الأصل واللغة والقصيدة والتراث الفكري، مما يجعلهم وحدة حضارية واحدة، ويخلق عندهم شعوراً بالانتماء إلى تلك الوحدة وتعلقاً بها.

والأمة بهذا المعنى حقيقة اجتماعية وحضارية، خلافاً للدولة التي تعتبر وحدة سياسية وقانونية. وقد تجمع الأمة الواحدة دولاً عدة كما هو الشأن بالنسبة للأمة العربية.

ومن روائع اللغة العربية أنها جمعت بين الأم والأمة في جذر لغوي واحد، فالأمة أم لأبنائها، والأم أمة جامعة لخصال الخير والبر[1].

وبعْدُ...

---

(١) العربي ـ العدد ٤٠٧ ـ اكتوبر ١٩٩٢. فاروق شوشة.

سواء كان للأمة اللبنانية مفاهيم تنطبق عليها كما تنطبق على سائر الأمم، أم لم يكن ذلك،

سواء كان للوطن الصغير جغرافيا وحدود لا تُخْتَرق ولا تُغيَّر أم لم يكن ذلك،

فإن لبنان موجود وشعبه ـ في أمة ـ موجود.

له رسالة مضيئة يحملها، رسالة حضارة تُخْضِع الشرّ، تخضع الفوضى، تخضع الاستبداد وتقوده إلى التدجين.

أنا من أمتي رسالةُ نورٍ تتركُ الوحشَ غيرَ ذي أظفارِ

هكذا شاء قدموس البطل الفينيقي أن يكون. وهكذا كان. حَمَلَ رسالة النور وتابع بثقة:

«صيدون، القدس، انطاكية، دمشق، بؤر عقلية أربع لا تنكفىء على ذاتها، بل تروح تتحاك والعقل العالمي. تخصبه ويخصبها.

فمن صيدون تمضي جالية إلى مصر تؤسس أجمل أحياء منفيس حيث تقوم حركة عقلية تكفل تنشئة موسى بطل الوحدانية»[1].

سفنهم في الجنوب تهمي على النيل اختراعاً وفكرةً وصناعَهْ

فإذا الطرف جابَ منفيسَ مِصرَ خلتَ لبنانَ مستقلاً شراعَهْ

---

(1) د. مكارم الغمري ـ مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي عالم المعرفة ـ ١٥٥ ـ ط ١٩٩١ ـ ص ٢٨١.

منفيس الأرض، ومنفيس المرأة!

يُرى لبنان في منفيس. يُرى قدموس يبحر.

يُرى لبنان أيضاً في خشب الأرز الذي يحمل جسد منفيس المرأة المصرية زوجة سليمان المخلصة التي تجرعت السم بدل زوجها. فدت حياته بحياتها فجلس يبكيها بحرقة:

«يزينُ رأسكِ تاج الملكِ إنك يا منفيس أثمنُ من ملكي وتيجاني

يضمُّ جسمك لحدٌ مِلءُ بُردتِه طيب وأخشابه من أرز لبنانِ»[1]

يُرى لبنان في منفيس، ويُرى النيل وأبو الهول الجبار، والأهرامات في لبنان، في معبد الشمس، في بعلبك.

ليس مصرياً من رأى مصر في لبنان لنقول إنه ردّ الصورة بالصورة والقصيدة بالقصيدة تكريساً للحب والودِّ الذي جمع كليهما. إنه «ايفون بونين» أحد أهم أدباء روسيا المتفردين في فترة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

معبد الشمس (١٩٠٧)

ستّ أعمدة ذهبية مرمرية

واد أخضر بلا شاطىء

لبنان في الثلج ومنحدر السماء الأزرق

شاهدت النيل وأبا الهول الجبار

(١) الشيخ ابراهيم المنذر.

شاهدت الأهرامات: أنت أكثر قوة
وأكثر روعة، يا اطلال العهد العتيق
هناك كتل الأحجار الصفراء الرمادية
المقابر المنسية في محيط
الرمال العارية، هنا بهجة الأيام الشابةْ
الأنسجة التقليدية الجليلة
شرائح طولية من الثلوج والصخور:
ترقد مثل «تاليس» مجزع في لبنان

*

في أسفلها مروج، حدائق خضراء
وعذب، مثل برودة الجبل
صخب الماء المتدفق في لون حجر «المِلخيت»

*

أسفلها موقع أول معبد
وحتى لو كان مهجوراً ومنسياً
فالرواق يضاء بشمس أبدية
أبوابه تفضي إلى عالم النعيم[1]

* *

---

(١) د. مكارم الغمري ـ مؤثرات عربية واسلامية في الأدب الروسي ـ عالم المعرفة، ١٥٥ ـ ط ١٩٩١ ـ ص ٢٨١.

رسالةُ النور للعالم تُنْشَرُ. رسالةُ الحب للعالَمِ تُعطى بسخاءٍ.
السخاء يضادّ الانكفاء على الذات.
الخصب أخذٌ وعطاء.
الخصب تحاكٌ!
بين مصر والفينيقيين تاريخٌ وتفاعل.
بين مصر والفينيقيين تحاكٌ وانفتاحٌ وعطاءٌ متبادل.
فلنقرأ أسطورة تموز الجبيلي[١] أو أدونيس.

تقول هذه الأسطورة «إن أدونيس كان معشوق الزهرة، وقد خرج يوماً ليصطاد في غابات لبنان، فانقضّ عليه خنزيرٌ بريّ، أرسله عليه المريخ، معبود الحرب، وضربه بنابه الحاد، لأنه كان يحسده على مكانته عند الزهرة. وإذ عرفت الزهرة بقتل أدونيس، أسفت عليه كل الأسف وأخذت تبكيه وتنوح عليه. ولفرط حبها له أقامته من الموت» [٢].

أقام حوريس أباه أزوريس من الموت.
وأقامت ستناي ابنها سوسروقة من الموت.
وأقامت الزهرة حبيبها من الموت.
كلنا، نقيم مَنْ نحبّ، يوماً ما، من الموت.
بالشجاعة المستمدة منه، بإكمال طريقه، بالحديث عنه، أو بالدموع.
المهم القيامة.
نعود إلى أدونيس.

---

(١) نسبة إلى جبيل.
(٢) كمال يوسف الحاج - موجز الفلسفة اللبنانية.

«كان يُحتفل بأعياد أدونيس على مرحلتين: الأولى، غياب المعبـود، الثانية، قيامته من الموت.

في المرحلة الأولى:

كان الفينيقيون يسيرون إلى ناووس مزيّنٍ وفي مقدمتهم الكهنة وتسير وراءهم بنات حامـلات سلالاً، مملوءة كعكـاً وزهوراً، وجمـعٌ غفير من النساء لابسات ثياب الحداد. وكان الفينيقيون يضعون في الناووس تمثال أدونيس. وهو أصفر اللون والدم يخرج من جرحه، ويضعون على جانبه صورة الزهرة الباكية. وكانت تقوم بهذا العمل فتاة ذات جمالٍ رائع فتان. وعند غياب الشمس كانوا يتممون الاحتفال إذ يضعون الجثة المقدسة في القبر. وتأخذ النساء في قص شعورهن حزناً عليه.

في المرحلة الثانية:

كان الفينيقيون يتلقون من المصريين خبر انقضاء الحزن. ففي مصر كان القوم يسيرون باحتفال إلى الشاطىء، ويـطرحون جثـة أدونيس في البحر ليصير لها ضريحاً كالشمس التي تأوي إليه.

وكانوا يطرحون في الوقت نفسه سلاً، ضمنه رأس مصنوع من الورق السميك، ورسالة يخبرون بها أهل فينيقيا بقيامة المعبود من الموت، فكانت الرياح تهب دائماً في شهر آذار تدفع السل المذكور، الذي يصل إلى مدينة جبيل، حيث يحتفل القوم بعيد قيامة أدونيس.

كان يحدث في أيام عيد الموت حادثة غريبة. فإن ميـاه نهر ابراهيم كانت تصبغ بلون أحمر. فيقول الناس بأن ذلك تذكاراً للدم الذي خرج من جرح أدونيس، ولا يزال ماء هذا النهر شهر آذار تشوبه غالباً حمرة،

يكتسبها من الرمال التي تقذفها الأراضي المارّ عليها[1].

من صيدون إلى منفيس
من صيدون إلى اليونان
من صيدون إلى العالم

نـحـن صـيـدونـيـون، مـوطـنـنـا الأرضُ ونـأبى أقـلَّ سـاحِ الحـيـاةِ

هكذا قال قدموس. هكذا قال سعيد عقل الذي صار هو قدموس صار هو حامل الرسالة.

من صيدون إلى فتح بلاد اليونان يبني مدينة ثيبا مرضعة أثينا وإذا يشرق نجم روما النظام، ربيبة أثينا المنطق. تنفتح لها اثنتان من مدننا الأربع:

عبر طرسوس تفعل أثينا في أنطاكية،
وعبر بيزنطة وبيروت تفعل روما في دمشق
ومن عصب دمشق تكون قرطبة الأندلس التي ستغدو عاصمة العالم الفكرية بين عامي ثماني مائة وألف. وتكون أنطاكية قد انتقلت جملة إلى روما النظام تجعلها روما الروح.

ومن هذه ومن تلك، ومن أثينا تكون أوروبا الحديثة التي لا ننفك في القرنين الأخيرين نتصل بها عبر باريس عاصمة العالم الروحية، ومستودع الإرث العقلي الواحد»[2].

---

(1) كمال يوسف الحاج - موجز الفلسفة اللبنانية - ص ١٨٢ - ١٨٣.
(2) سعيد عقل مقدمة قدموس.

مـن المـوطـن الـصـغـيرِ نـرود الأرضَ
نــذري في كــل شطٍّ، قــرانــا

«من صيـدون إلى دمشق، مرّاً بـالقدس، فـأنطاكيـة، فتشابكـاتهـا بعواصم العالم العقلية»

تراكمُ إرث قدير، نيّر، محب، قـد تكون غفلت عنـه في زمن من الأزمان مدن الخير الأربع التي أطلعته، فتركت انطاكية، وتبدت دمشق وصيدون، وتصهينت القدس، ولكن لبنان، ماانفك على الزمن يحتضن ذلك الإرث بحرص، موفراً له المضيّ في اتجاهه الذاتي الفذّ، مؤمّناً له ـ لانفتاحه ـ لفتاتٍ وساعاً كالوجود صوب كل تقدم في الوجود.

هذا هو الإرث الذي يكوّن لبنان وذاتيته وثراءه العقلي. ويحدّه بأنه «ماوراء» تخوم ونطق وعرق ووحدة أي تاريخ كان»[1].

الإرث تـوزع على الأبنـاء، فبدده البعض، وحـافظ عليـه البعض الآخر.

ضاعت قسمات المورِّث عند البعض الأول، وظلّت عيناه تلمعان في عيني وريثه المحافظ على إرثه بحب وثقة.

لبنان ـ الوريث الفذّ ـ حمل ثروته بين ضلوعه.

خبّأها في ثناياه، فعبقت منه رائحة الثراء القديم. عبقت منه رائحة الجدود، رائحة الأصالة.

«سوف يكون لبنان ـ بحكم إرثه هدياً لكلِّ مستهدٍ، ومدرسة حبٍّ لكل مبغض، وسعة لكل ابن حق ضاق به صغر الأرض.

---

(١) سعيد عقل ـ مقدمة قدموس.

سوف يكون البلد ـ الوحيد إذا اقتضى الأمر ـ الذي يأمن العقل فيه أن يحكم على أي إله، ولأي إله. على أي إنسان، ولأي إنسان. على أي عمل، ولأي عمل، وفي كل مسكن، وفي كل شارع، وفي كل ظرف»[1].

الحرية ابنة البشر والأرض معاً.

الحرية ابنة الإرادة. ابنة من يشأها أن تكون له.

لماذا لبنان منبت الحرية؟...

لماذا تحمل يا قدموس في بنود رسالتك للعالم هذه الكلمة الكبيرة؟... أهي من اختراعك؟ أهي مما عُرِفَ عنكَ من حماس وثقة؟... مهلاً قدموس هل تعلم ماذا تعني الحرية؟...

وماذا يعني أن تنسبها إليك وإلى أرضك؟...

ـ عندما يحدثوننا عن «الهراكيري» (انتحار الياباني بأن يبقر بطنه) لا نستغرب. مع أنه النهج الذي اختطه اللبناني لنفسه بأن ينتحر حرقاً عندما تتعاظم الصعوبة، هو أقدم بكثير من «الهراكيري».

أن نكون نجهل تاريخنا هو، هو المعضلة. ويوم ستصبح أمجادنا جزءاً من مناهجنا التعليمية، يعود استغراب هذه الأمور هو المستغرب»[2].

نعرف، قدموس، أن جبال لبنان قد لعبت دوراً تاريخياً هاماً في تكوين نفسية اللبناني وذلك بالحصانة الطبيعية.

«الطبيعة جعلت من لبنان مخبأ لجميع المضطهدين في العالم العربي. لذا، يتألف اللبنانيون من أقلّيات شردت، فالتجأت إلى مغاور الجبال

---

(١) نفسه.

(٢) د. وليم الخازن ـ نبيه البان ـ كتب وأدباء ـ ص ٣٠٢.

في لبنان. أي إن اللبنانيين مجموعة عصاة. من هنا حبهم للحرية. إذ المضطهد، الذي يأنف الخضوع، والخنوع، فيفرّ من وجه العدوّ، هو كائن حرّ.

هذا، وقد أيقظت طبيعة جبال لبنان، الخشنة، الصلبة، القاسية نخوة نزقة جعلت اللبنانيين يستيسرون كل الصعاب، ويذللون كل العقبات، في سبيل المحافظة عل حريتهم.

نسفوا الصخور. سطّحوا النتوءات. سدّوا الفجوات»[1].

نعرف، قدموس، أن لبنان حامي الحقيقة، لذا لجأ إليه الأحرار.

حامي الحقيقةِ، لا القديم يؤودُه
حفظاً ولا طلب الجديدِ يفوته[2]

نعرف، قدموس، كم تغنى الأدباء ليس فقط بجمال لبنان الأخاذ، بل بتلك النفحة السحرية التي تنفسوها فملأت بسحرها ذكرياتهم عنه.

نعرف أيضاً كيف جاء السيد المسيح بتلاميذه إلى لبنان «أراد أن يخرجهم من عزلتهم اليهودية حتى يهتموا بالعمل الصالح لكل الشعوب»[2] أرادهم أن يحطموا «السياجات بين اليهود والأمم»[3] وأن يكفوا عن اعتبار أنفسهم شعب الله المختار، صوته يأتينا معنِّفاً المدن التي جرت فيها أكثر معجزاته وما تابت:

«الويلُ لكِ يا كورزين!

---

(١) كمال يوسف الحاج ـ ص ١١٠.

(٢) أحمد شوقي ـ قصيدة لبنان.

(٣) (٣) كمال يوسف الحاج ص ١٩٠ ـ ١٩١.

الويلُ لكِ يا بيتَ صيدا

فلو جرى في صور وصيدا ما جرى فيكما من المعجزات لأظهرتا التوبة بالمسح والرماد من زمن بعيد.

على أني أقول لكم: إن صور وصيدا سيكون مصيرهما يوم الدين أخفّ وطأة من مصيركما»[1].

«لقد كان المسيح يتحدث عن صور وصيدا حديث العارف بشؤون هاتين المدينتين. والمعلوم أن تلاميذ المسيح والمسيحيين التجؤوا إلى ربوع لبنان، لما راح اليهود والرومان، بدافعٍ من اليهود، يضطهدونهم في فلسطين. ثم أخذوا يديرون حركة التبشير من لبنان بعد استشهاد استفانوس أول شهيد مسيحي.

ويشير التقليد إلى أن مريم العذراء، مكثت، مرة، في كهف قديم على مقربة من جنوب صيدا، تنتظر مجيء المسيح.

ربما كان ذاك الكهف معبداً لعشتروت. المهم أن العذراء أقامت فيه.

يهوذا مرّ بجبيل. وأقام عليها أسقفاً من تلاميذه اسمه حنا مرقس.

وهو نسيب برنابا الرسول. [...] وبطرابلس مرّ حيث بقي مدة غير يسيرة. [...] ويقول لنا بولس الرسول بأنه عندما ترك بلاد اليونان ليزور أورشليم ـ وهي آخر زياراته لها ـ عرّج على صور بسفينة كانت تعبر إلى فينيقيا لتفرغ هناك حمولتها»[2].

---

(١) حتى: ١١: ٢٠ ـ ٢٣.

(٢) كمال يوسف الحاج ـ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

لـيس أرزاً ولا جـبـالاً ومـاءً
وطـني الحـبُّ لـيس في الحـبِّ حـقـدُ
وهـو نـورٌ فـلا يـضـلُّ فَـكَـدُّ
ويـدٌ تـبـدعُ الجـمـالَ وعـقـلُ
لا تـقـل: أمـتي وتـسـطو بـدُنـيـا
نـحـن جـارٌ لـلعـالمـينَ وأهـلُ

ـ نقرأ، قدموسَ، الوطنَ، حباً، حرية، عطاءً، استقلالاً لا يقبل الجَدلَ.

كـم رأيـنـا عـلى المـدى مـن مجـوسٍ
ومـلوكٍ ومـن جـنـودٍ غـزاةٍ[1]

ـ نعم. إنها ضريبة الموقع، ضريبة الجمال، لكن الأحرار المضطهدون الذين هربوا إلى لبنان حاملين معهم الحرية تفاعلوا كوّنوا تاريخاً مشتركاً. قاوموا الغزاة الآتين أيضاً من أجل خنق الحريّات!

إن الوحدة التاريخية إنما بدت معالمها بشكل أوضح في المنطقة الجبلية حيث كان يؤمها منذ أقدم الأزمنة شعوب متنوعة بأجناسها وأديانها، فيعيش الواحد منها إلى جانب الآخر يؤلف بينها عاملاً درء الأخطار والمشقة الدائمة، مما أكسبها طابعاً خاصاً. ولا شك أن طبيعة هذا الجبل وسمت أبناءه بالعزم والنشاط، فإذا هم عبّاد حرية يستميتون في سبيل استقلالهم وحريتهم.

لقد اتصف هذا الشعب منذ القدم بالصمود في وجه كل فاتح،

---

(١) سعيد عقل.

وبتمتعه بالاستقلال الجزئي أو الكامل خلال العصور. فهو واثق من مصيره، نزّاع دوماً إلى إثبات شخصيته، متمسك بصفاته الأصيلة وقيمه الحضارية وتراثه الإنساني.

صمدت صور ثلاثة عشرة سنة أمام حصار نبوخذ نصر سنة ٥٨٧ ق.م، ثم صمدت ثانية بوجه الاسكندر سبعة أشهر حتى سقطت سنة ٣٣٢ ق.م. وأحرقت صيداء نفسها عندما حاصرها الفرس في الجيل الثالث وفنيت على بكرة أبيها، وألقى نساء قرطاجة بنفوسهن وأطفالهن في نار الهيكل وآثرن الموت على الاستسلام.

فإذا كانت القومية اذكاء البطولات المتحدرة من الأجيال البعيدة، والتأكيد على الطموح والامجاد، والوفاء بذكريات العز، وتلقي تاريخ من الحضارة والمجد ثم نشره على المعمور، والمشاركة في الانتصارات والخسائر، والدعوة إلى السلام، وإشاعة المعاني الإنسانية، فما أوضح معالم تلك القومية وما أعمق جذورها في تاريخ هذا الوطن.

أما إذا كانت القومية إرادة شعب متكامل ينشد التماسك القومي في رعشة وأهداف مشتركة ووحدة سياسية، فكان طبيعياً ألا تظهر مثل هذه القومية في ذلك الزمن البعيد، لا هنا ولا في أي بلد من بلاد الناس. وفي الواقع إننا نرى ملامح هذه القومية منذ تلك العصور، ولكن موزعة في كل حاضرة من هذه الحواضر الساحلية، ثم في الجبل فيما بعد، دون أن تبرز رابطة متكاملة، جامعة بينها، على النحو الذي تريده مفاهيم القومية المعاصرة.

ثم تنهض صور بعد الضربة القاسية التي أصابتها من الاسكندر، وتنشط صيدا إلى الثروة والمجد في عهد البطالسة، ويأخذ التمدن اليوناني

يمتزج بالحضارة اللبنانية القائمة في هذه البقعة والمنتشرة منها في العالم، فيبرز دور لبنان في ميدان العلوم والآداب، وتكثر أسماء الأعلام فيه، ويستمر هذا العمل الحضاري الخطير بعد ذلك طوال العهد الروماني حيث يتجلى في مدرسة الحقوق في بيروت. وفي انطلاق هذه المدينة كمركز للدراسات اللاهوتية لرجال الكنيسة آنذاك.

وما أطلت سنة ٦٣٥ حتى بدأت الفتوحات العربية باحتلال الشام على يد خالد بن الوليد، وامتدت الفتوحات إلى سائر الشرق ومصر والمغرب واسبانيا.

استولى العرب على سواحل لبنان ومدنه، فسقطت الواحدة تلو الأخرى في يد معاوية ويزيد. سقطت بعلبك سنة ٦٣٤، ثم بيروت سنة ٦٣٥، ثم صور وصيدا سنة ٦٣٦ وكذلك جبيل وعرقه (البلاذري) و (ابن الأثير).

هنا نصل إلى عصر الإمام الأوزاعي الذي ولد سنة ٧٠٧ وتوفي سنة ٧٧٤ أي في الجيل الثامن، حيث كان لبنان في العهد العربي من أموي وعباسي. والذي تجدر الإشارة إليه أن تاريخ لبنان في تلك الحقبة لايزال مجهولاً جهلاً يكون تاماً.

يقول الدكتور فيليب حتي في كتابه «لبنان في التاريخ» في الصفحة ٢٩٧:

«يحيط بتاريخ لبنان في القرون الأربعة والنصف الأولى التي تلت الفتح العربي حجب كثيفة. فإننا نجهل تاريخ الحقبة التي تقع بين الفتح العربي ومقدم الصليبيين جهلاً يكاد يكون تاماً لولا بعض أحداث بارزة وخطوط عريضة نتلمسها بشيء من الجهد، فلا المصادر البيزنطية تقول

شيئاً، ولا المصادر العربية تغني طالباً».

على أن الأمر المعروف تاريخياً أن فينيقية كانت في عهد الخلافة الأموية منوطة بدمشق، أما الجبل فقد حاول معاوية إخضاع سكانه النصارى فلم يفلح لوعورة مسالكه من جهة ولتحصن أبنائه من جهة ثانية، خصوصاً وأن ملوك الروم كانوا قد أرسلوا إليه قوماً من جندهم يعرفون بـالمَرَدَة، واللفظة فارسية تعني البطل، فقدموا إليه من جبال طوروس وكانوا أشداء في الحروب، عروفين بمعابر الجبال، بلغ عددهم الاثني عشر ألفاً، تحدث عنهم معظم المؤرخين أمثال العلامة الفرنسي دوبرون والبلاذري وابن العبري وياقوت والأب لامنس وغيرهم. وقد عرفهم العرب بالجراجمة نسبة إلى مدينتهم جرجومة.

اندمج هؤلاء الجراجمة بسكان الجبال الأصليين وأسفر هذا الاندماج عن قيام الطائفة المارونية التي تؤلف وحدة مسيحية متراصة. ويقول الدكتور فيليب حتي:

«ومنذ هذا الوقت يبدأ جبل لبنان بالظهور على مسرح السياسة في هذا القسم من العالم».

يجدر التوقف هنا عند شخصية فذة كان لها تأثيرها العميق في نشوء ما سمي بالقومية المارونية، وهو القائد العالم البطريرك يوحنا مارون، أول بطاركة الموارنة، الذي استطاع في عهده أن يكوّن الخصائص الأولى التي جعلت من هذا الشعب أمة ذات سيادة. وعندما هدمت جيوش الأمبراطور يوستنيان الثاني دير مار مارون في وادي العاصي وتابعت زحفها لمحاربة الموارنة في لبنان، قهرهم هذا القائد البطل في أميون. ومنذ ذلك الوقت أخذ ذلك الشعب يتكون وينمو كأمة مستقلة متصفاً بالجرأة والحفاظ على عاداته ودينه وقوميته.

وبالفعل كان الموارنة، وهم سكان جبل لبنان، محتلين القسم الأكبر من سواحله، وهم الذين بسطوا حدوده في ذلك الحين من جبال طوروس إلى نواحي الكرمل. فما كان من الخلفاء العرب إلا أن عاملوا اللبنانيين باللين بعدما خبروا شدة مراسهم وتوقهم إلى الحرية والاستقلال، فكانوا يفاوضون أمراءهم وأسيادهم، مما يؤكد وجود الكيان اللبناني في ذلك الحين. إلا أنه لم تمر فترة من الزمن حتى رفض موارنة الجبل دفع الجزية إلى خلفاء بني أمية في دمشق وفرضوا على هؤلاء نوعاً من الجزية تدفع لهم ضمانة لحسن تصرفهم تجاه الدولة.

ولا بد هنا من التنويه بأن الحكم الأموي اتصف بالتسامح الديني، فكان معاوية مثالاً يحتذى في سلوك رجل الدولة. تزوج ميسون النصرانية التي احتفظت بدينها وولدت له وريثه يزيد، وكان **الأخطل المسيحي شاعره**، ومنصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي وزير ماله، وطبيبه كان نصرانياً[1].

حمل اللبنانيون الودّ للشام والأمويين وغنوا المجدَ الماضي:

لبني أميةُ في النفوسِ مكانةٌ	بالبأسِ والإحسانِ والتعديلِ
ملكوا القلوب بحلمهم وسخائهم	ورعوا ذمامَ عشيرةٍ وقبيلِ
ماتوا كما عاشوا ملوكاً بسَّلاً	لم يؤخذوا بالقهرِ والتنكيلِ
أدمشق أنتِ أميرةٌ أمويةٌ	بالقصر والكرسي والإكليلِ
فابكي معاوية الذي بدهائه	جعل الخلافة فيك بين نصولِ
والأخطل المختالُ يترعُ كأسَهُ	ويقول: دنيا لشعري ميلي

ويجـرر الأذيـالَ عنـد خليفـةٍ قـد رصّعَ الاكليـلَ بالإكليـلِ[1]

وحمل شاعرنا حبه للشام باسم لبنان محيياً:

سـائليني حـينَ عـطرتُ السّـلامْ كيفَ غـار الوردُ واعتـلّ الخزامْ
وأنـا لـو رحتُ أسترضي الشـذا لانثنى لبنـانُ عـطراً، يـا شـآمْ
ضفّتـاكِ ارتـاحتـا في خـاطـري واحتمى طـيرك في الـظن وحـامْ
أنـا إن أودعتُ شِعـري سكـرةً كنتِ أنتِ السكبُ أو كنتِ المُدامْ
رُدَّ لي مـن صبـوتي يـا بـردى ذكـريـاتٍ زرْنَ في ليّـا قـوامْ
هـذه «الغـوطـة» أوفى تـربـةً بهم أم جبـل «النبـك» القُـدامْ
جبـلٌ يجمـعُ في أصـلابـه دعـة الـسـفـح إلى عـزِّ الـسّـنـامْ
ظمىء الشرق، فيا شام اسكبي واملأي الكأسَ لـه حتى الجِمامْ
أهلكِ التـاريـخُ من فضـلتهـم ذكـرهم في عروة الـدهـر وسـامْ
أمـويـون فـإن ضـقـتِ بهـم ألحقـوا الـدنيـا ببستـان هشـام
أنـا لـست الـغَـرِدَ الـفـردَ إذا قال طاب الجرحُ في شجو الحمامْ
أنـا حـسبـي أنني مـن جبـلٍ هـو بـين الله والأرضِ كـلامْ
قممٌ كـالـشمسِ في قـسمتهـا تلدُ النـور وتعـطيـه الأنـامْ[2]

لكن تلك لم تكن ميزة الحكم العباسي الذي اعتمد القوة والبطش. لقد عظم على أبي جعفر المنصور أن تقف جيوشه عند صخور لبنان دون بلوغ جباله. وأمر بالقسوة على سكان تلك الجبال الذين كانـوا يشكون فـداحة الضرائب، فـرفعوا رايـة الثورة، وتنـادوا للدفـاع عن حـريتهم وكـرامتهم، ونشبت أولى الثورات في لبنـان سنـة ٧٥٩ - ٧٦٠ في بلدة

---

(١) أبو الفضل الوليد - الياس عبد الله طعمة - ديوانه - من قصيدته الأموية.

(٢) سعيد عقل - كما الأعمدة.

المنيطرة كسروان، فاحتل أهلوها السهول وزحفوا على بعلبك. فهاجمهم العامل العباسي صالح بن علي وهو أخو عبد الله القائد العام للجيوش العباسية، وشتتهم في طول البلاد وعرضها، وأعمل السيف والنار في القرى[1].

هل نقرأ التاريخ؟...

هل نصمد كما صمد الأوائل طويلاً أم نلقي أنفسنا في نار الهيكل لنفنى؟

وهل نجد يوماً ما أحداً يلملم أجزاءنا فيحيي ذكرنا ويعيدنا إلى الحياة؟

فلنسأل حوريس ولنسأل ستناي ولنسأل الزّهرة.

مهلاً، قدموس، في رسالتك كلماتٌ يعرفها النخبة.

يعرفها الأفذاذ.

الحرية غنيتُها بصلابة الصخر الذي يميز هذا الوطن والذي جسمك ابنه.

مهلاً، قدموس، أرى صُورَهم تشبهك:

«أُجْفِلَ الليثُ منه فانتهرَ الليثَ شجاعاً، وردَّه مستذَلّاً
ضربةٌ منه لا تخيبُ، فإن ينقضَّ يبطش وإنْ يشأْ ينسلّا»[1]

مهلاً قدموس قرأنا التاريخ فماذا عندك؟..

كم رأينا على المدى، من مجوسٍ
ومن جنودٍ غزاةِ ومن ملوكٍ،

---

(١) سعيد عقل قدموس.

شـعـراءٌ، وأنـبـيـاءٌ، وأربـابٌ
جـثـوا، دون صـخـرنـا، في صـلاة
وتـظلُّ الأمـواهُ مـن نهر الـكـلبِ
كـبـاراً، فـوق الإهـانـةِ قـدرا
كـركـلاّ، يـا رعـمـسـيس، ويـا بـرقـوقُ
أنـتـم، في الـشطِّ، أوهـامُ ذكـرى![1]

ـ مهلاً، قدموس، هل تكفي صلابة الجسد ـ الصخر؟
هل تكفي الجبالُ ليكون الفذُّ فذّاً؟...
تحمل رسالة نور؟... تحمل رسالة حب؟...
تقرأ علينا الجغرافيا.
تعرض أسماء الأماكن والحروب والانتصارات.
أو الأجساد الملقية برضا في نار الهيكل.
مهلاً قدموس.
حكيتَ بلسان لبنان.
لكنك.. فيك بعض غضبٍ. بعض عنجهية... بعض...

مـا تـكـبّـرتُ، مـشـرقُ الأرضِ سـاحـي
يـومَ أعـطـي، ومـغـربُ الأرضِ سـاحـي

ـ وكيف تنكر لغيرك إذن أن يكون له الحق في أن يكون مشرق الأرض ومغربه ساحه أيضاً؟...

نـحـن صـيـدونـيـون، مـوطـنـنـا
الأرضُ ونـأبى أقـلَّ سـاحِ الحـيـاةِ[2]

---

(١) سعيد عقل ـ قدموس.
(٢) نفسه.

ـ مهلاً، قدموس، هل الظلم يتجزأ؟... هل الغزو يتجزأ؟...

نحن غيرُ الغزاةِ ننزلُ قفراً
فنخلّيه أنهراً وجنائن[1]

نزرعِ المُدْنَ، نزرع الفكر في الأرضِ ونمضي مع الفاتحين مثالا
وغداً تعرفُ الحضارةُ في صيدون أمّاً فتنحني إجلالاً[2]

صيدون أمّ الحضارة.

ماذا لديكِ؟...

غزوتِ أم فتحتِ البلدان؟...

نحن غير الغزاةِ ننزل قفراً
فنخليه أنهراً وجنائن!

هكذا قال ابنك حامل رسالتك.

غزوتِ أم فتحتِ؟...

حين حوّل العرب ـ الفاتحون ـ كنيسة آيا صوفيا إلى مسجدٍ، لم يعتبروا التحويل انتصاراً. لم يعتبروا التحويل إذلالاً، بل اعتبروه هدية:

كنيسةٌ صارت إلى مسجدِ
هديةُ السيد للسيِّدِ
كانت لعيسى حرماً فانتهت
بنصرة الروحِ إلى أحمد[3]

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) أحمد شوقي.

حين فتح العرب الأمصار - لم يعتبروا أنفسهم غزاةً. كانوا حاملي رسالة أيضاً.

بفاتحٍ غازٍ عفيف القنا
لا يحمل الحقدَ ولا يعتدي
أجار مَنْ ألقى مقاليدَه
منهم وأصفى الأمن للمرتدي[1]

حاملو الرسالةِ - قدموسَ - حاملو حبٍّ.
حاملو الرسالةِ - قدموسَ - حاملو رأفةٍ وحضارة.

حمل العرب رسالة إلى الأندلس.
حملوها - غزاةً - ولكن «غير الغزاةِ» أيضاً:

غزاةٍ كرامٍ باسلينَ تسلطوا
فكانوا لأهلِ الأرضِ خيرَ قضاةِ[2]

«لقد تحولت وديان الأندلس الجافة إلى رمز للنماء الزراعي، بعد استيراد نظم الري من سوريا والأراضي العربية الأخرى. فبعد أن كان الزيتون والقمح هما المحصولين الدائمين الوحيدين في الأندلس، جاء العرب ليضيفوا إليهما، الرمان، والبرتقال، والليمون، والباذنجان، والخرشوف، والكمون، والكزبرة، والموز، واللوز، وأشجار النخيل و «الحنة» والوسمة (نبات يستخرج منه صبغة زرقاء) والسفوّة (نبات

---

(١) جيمس بيرك - عندما تغير العالم - ترجمة ليلى الجبالي - مراجعة: شوقي جلال - عالم المعرفة ١٨٥ - الكويت - أيار ١٩٩٤ - ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) انظر العربي - العدد ٤٢٧ - يونيو ١٩٩٤ م.

تستخرج منه صبغة حمراء) ونبات الزعفران، وقصب السكر، والقطن، والأرز، والتين والعنب، والخوخ، والمشمش [. . .] وامتلأت قرطبة بمحلات بيع الكتب، وأكثر من سبعين مكتبة عامة. أما المكتبة الرئيسة الكبرى في قرطبة والتي بنيت داخل القصر الملكي نحو عام ١٩٧٠، فقد كانت موضع فخار العرب في اسبانيا. [. .] واستخدم العرب الورق في ذلك الزمان البعيد [. . .] والأهم من هذا كله، أن الدين والثقافة تعايشا معاً في تواؤم، فحيثما وجد الإسلام، وجد معه التعطش إلى المعرفة وتطبيقاتها على شتى مناحي الحياة»[١].

وما بقي، قدموس، سوى آثار وأبيات شعر محفورة على حجر في الأندلس.

١ ـ أغارُ عليك من عيني ومنّي ومنك ومن زمانك والمكانِ
ولو أني خبأتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني
ولّادة

٢ ـ يا من غدوتُ به في الناس مشتهرا قلبي يقاسي عليك الهم والفكرا
إن غبتَ لم ألقَ إنساناً يؤانسني وإن حضرتَ فكل الناس قد حضرا
ابن زيدون

نقش على حجر وحكاية حب[٢]؟. . .

لكن رسائل الحب، رغم ما فيها من نيّة طيبة وخيّرة، لا تصل أحياناً إلى أماكنها التي يجب أن تصل إليها.

---

(١) أحمد شوقي.
(٢) أبو الفضل الوليد ـ الياس عبد الله طعمة ـ ديوانه ـ دار الثقافة ـ بيروت.

تُمزَّق وتُرمى بعبثٍ
الحبّ - قدموس - رغم روعته، لا يُفرَض!
إنه فعلُ اختيار!

بين الغزو والفتح وشائجُ قربى
يقال:

الفتحُ: نقيض الإغلاقِ. فَتَحَهُ يفتحه فتحاً وافتتحه وفتَّحه فانفتحَ وتفتَّحَ.

والفتح: افتتاح دار الحرب وجمعه فتوحٌ.
والفتح: النصر.
وفي حديث الحديبية: أهو فَتْحٌ؟ أي نصر.
واستفتحتُ الشيءَ وافتتحتُه، والاستفتاح: الاستنصار.
وفي الحديث: أنه كان يَسْتَفْتِحُ بصعاليك المهاجرين أي يستنصر بهم.
ومنه قوله تعالى:
﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾
واستفتحَ الفتحَ: سأله.
وقال الفراء: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصُر أفضلَ الدينين وأحقَّه بالنصر.
فقال الله عز وجل:
﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتحُ﴾
قال أبو إسحق: معناه إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، قال:
ويجوز أن يكون معناه
إن تَسْتَقْضُوا فقد جاءكم القضاء. وقد جاء التفسير بالمعنيين جميعاً.

وقوله تعالى: ففتحنا أبواب السماء، أي فأجبنا الدعاء.
واستفتح الله على فلان: سأله النصر عليه ونحو ذلك.
والفَتَاحةُ: النُّصْرَةُ.
الجوهري: الفُتاحة، بالضم، الحُكُم.
وقيل: الفُتاحة: الحكومة.
قال الأشعر الجعفي:

ألا مَنْ مُبلِغٌ عَمْراً رسولاً
فإني عن فُتاحتكم غنيٌّ

الأزهري: الفتحُ أن تحكم بين قوم يختصمون إليك.
كما قال سبحانه مخبراً عن شعيب: ربنا افتَحْ بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.
وفي أسماء الله تعالى الحسنى: الفَتّاحُ. قال ابن الأثير:
هو الذي يفتحُ أبواب الرزق والرحمة لعباده. وقيل: معناه الحاكم بينهم.
ـ غزا: غَزَا الشيءَ غزواً: أراده وطلبه وغزوتُ فلاناً أغزوه غزواً.
والغِزوة: ما غُزِيَ وطُلِبَ.
قال ساعدة بن جؤية:

لَقلْتُ لدهري: إنه هو غِزوَتي،
وإني، وإن أرغبتَني، غير فاعلِ

ومغزى الكلام: مقصدِه.
وعرفت ما يُغزى من هذا الكلام: أي ما يُراد.
والغزو: القصدُ.

وكذلك: الفَوْز.

وقد غزاه وغازَه غزواً وغوْزاً إذا قصدَه.

وغزا الأمرَ واغتزاه، كلاهما: قصَدَه.

والغزو: السير إلى قتال العدوّ وانتهابه.

غـزاهم غَزْواً وغَـزَواناً، عن سيبـويه، صحت الـواو فيه كـراهيـة الإخلال، وغَزاوةً.

قال الهذي:

تـقـول هُـذَيْـلٌ: لا غـزاوَة عـنـدَهُ
بـلى غَـزَواتٌ بـيـنهـن تـواثُـبُ

وقال ثعلب: إذا قيل غزاةٌ فهو عَمَلُ سنةٍ وإذا قيل غزوةٌ فهي المرة الواحدة من الغزوِ.

ورجل غازٍ من قوم غُزّىً مثل سابقٍ وسُبَّقٍ وغزِيّ على مثال فَعِيلٍ مثل حاجٍّ وحجيج وقاطنٍ وقطينٍ.

ابن سيده: والغَزِيُّ اسمٌ للجمع.

قال الشاعر:

سريـتُ بهـم حـتى تـكـلَّ غَـزِيُّهـم
وحـتى الجـيـادُ مـا يُـقَـدْنَ بـأرسـانِ

وفي جمع غازٍ أيضاً: غُزَّاءُ، بالمدِّ، مثلُ فاسقٍ وفُسّاقٍ.

والمَغازي: مناقب الغزاةِ

الأزهري: والمَغزى والمَغزاةُ والمغازي مواضعُ الغزوِ وقد تكون الغزو نفسه.

قال جميل:

يقولون جاهِدْ، يا جميلُ، بغزوَةٍ
وإنَّ جهاداً طيِّءٌ وقِتالُها[1]

بين الغزو والفتح وشائج قربى.

الغازي، حامل الرسالةِ، غازٍ حتى لو كان محمّلاً بالطيب والعطر والحضارة.

الغازي، حامل الرسالة، غازٍ - قدموس - حتى لو حوّل القفر أنهاراً وجنائن.

الغازي يعود إلى أرضه بعد أن عارك الغربةَ وعاركَتْهُ.
يستلقي تحت ظل سمائه هو.
يخلع عنه اللقب الذي حاول أن يوشيه بخيوط الذهب.
يتذكر، في ليالي شيخوخته، أمجاده التليدة،
يرويها لأحفاده،
أو يبكيها علَّ دموعه تكون كدموع الزهرة أو كدموع ستناي لها قدرة الإحياء!

صيدون أمّ الحضارة.
ابنكِ قدموس فذٌّ بعضلاته، فذٌّ بأفكاره.
حَمَل رسالة حبٍّ وانفتاح وتحاكٍ للعالم كله.
حمل القلم أيضاً قدّمه بسخاءٍ للآخرين:

جاء قدموس بالكتابةِ بالعلمِ إليهم إلى الأواتي العصورِ

(1) لسان العرب.

وغداً يعرفونَ أنّا على السفن حملنا الهدى إلى المعمورِ[1]

الكتابة تهوّن الحوار مع كل الشعوب.
الكتابة درب يسهّل التجارة.
اثنان وعشرون حرفاً علاماتٌ هجائية.
قبلاً،

«كانت الكتابة بالتصوير. وقد ظل استعمالها محصوراً، مدة من الزمن، في المعاملات التجارية والشؤون الإدارية فلم يرتفع الإنسان نحو الإشارات الهجائية إلا بفضل الفينيقيين.

هم أول شعب ابتكر أسلوباً كتابياً ليس فيه غير حروف حقيقية.

وقد أدركوه، لا بالتأمل الصافي المنعزل عن الواقع، وإنما بضغط من المعاملات التجارية.

رأوا أنفسهم محتاجين، وهم الملاحون الماهرون، إلى طريقة سهلة في الكتابة، يتمكنون بها من التفاهم مع الشعوب الأخرى المتنوعة الأجناس»[2].

تبسمين صيدون. يكلل رأسك الفخار. تعتزين بقدموس، ابنك، «الفذّ»!

ولكننا نسمع أصواتاً من بعيدِ مسافاتٍ، من بعيد عصورٍ تعترضُ. تقول بأن الحرف اكتشاف المصريين، وأخرى تقول إنه آشوري المنبت والمنشأ.

---

(١) سعيد عقل ـ قدموس.
(٢) كمال يوسف الحاج ـ ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

أصوات تذكرنا بـ: الهيروغليفية وأخرى بالمسمارية.

قدموس بعنجهيته، قدموس بحماسه، هل درس، هـل نقل، هـل عـدّل ما كـان مـوجـوداً وهـو التـاجـر الـذي يفتش عن سبـلٍ أوسـعَ لتجارته؟...

تعرفين، صيدون، ولا بد إن كان ابنك قد أكب على تراث الآخرين قبل أن يعلن اكتشافه.

أخبرينا صيدون عن الحرف. هل وُلِدَ الحرف من رحمك حقاً؟...

تغسل صيدون قدميها بمياه الشاطىء النقي.

ـ قدموس ابني، لكن الحرف ابن عقله هو.

«الحرف هو أسمى أفاعيل التجريد التي يقوم العقل.

التحليل الذهني للأفكار، يصل، في نهاية المطاف، إلى أنه لا يوجد شيء وراء الفكر إلا الكلمة، التي تكون قد رسمته على القـرطاس، أو قرعته بواسطة الشفتين»[1].

اخترعَ، أم اكتشف، أم درس، أم عدّل،ما همّ؟...

كانت كتابات المصريين والآشوريين صعبة. تعتمد على الرسم.

كتابتنا علامات هجائية أي رسوم ونقوش «يدل كل واحد منها على صـوت، يجمع فيـه قرع اللهـاةِ وأطراف اللسـان، مـع الحنـك والحلق والأضراس والشفتين.

تلك الأصـوات تتغايـر بتغايـر القرع، فتتـمايز الحـروف في السمع وتتركب الكلمات وفق ما في الضمـير، حتى إذا وقع البصر عليهـا تمثلها

(١) كمال يوسف الحاج ص ١٣٦.

الذهن، أيضاً، وأصبح قادراً على أن يعرف كل ما يمكن العقل البشري أن يصل إليه.

وهكذا، نرى أن اكتشاف الفينيقيين، للحرف، هو أخطر فعل وجداني، في تاريخ ما عمله الإنسان، من حيث النشاط الحضاري»[1].

اخترع، أم اكتشف، أم درس، أم عدّل، ما همّ؟...

«ما من شعب ذي فضل على العالم، إلا وللعالم فضل عليه. عبقرية لبنان هي بأنه كان منفتحاً على كل رياح الفكر. ولا أحقر من إنسان يقيم عظمته على إنكار تأثره بالغير. التأثر بالغير الذي يعقبه ابتكار هو وحده الانفتاح»[2].

- صيدون! توجّك ابنك أماً للحضارة وانتظر انحناءاتِ الإجلال والاعتراف بالعظمة.

صيدون! توّج ابنك نفسه حاملاً رسالةً تغير درب البشرية وانتظر الاعتراف بأنه حقاً حمل الحب والهدى والنور وقدمها بسخاء ما بعده سخاء!

صيدون! مشرقٌ تاريخ العلم فيكِ، كما تاريخ التجارة، معهد قانوني في بيروت كان قبلة أنظار الطلاب في الشرع خرّج في عهد الرومان الحكام والقضاة والمشرّعين والبلغاء الذين تباروا في الخطابة أمامَ المحاكم.

صيدون! يعرفك التاريخ سيدة البحارِ والتجارة. حاملة بشارة الأديان أيضاً.

---

(١) نفسه - ص ١٣٦.

(٢) سعيد عقل في لقاءٍ معه مع د. وليم الخازن/انظر كتب كتب وأدباء ص ٣٠٢.

صيدون. . .

يا عجيجاً «كدّ في السير صُعُداً من غباوة المادة إلى وعي العقل».

من أنتِ؟. . .

أما بالَغَ ابنك الممتلىء حماساً في رسم الهالة حولك، تماماً كما يرسم كل الأبناء صور آبائهم الذين يحبون؟. . .

هل شاء قدموس أن يختار أحلى ما لديك ليحدثنا عنه وهو صاحب مبدأ:

«شَأْ تزلزِلْ دنيا، وشَأْ تبنِ دنيا»[1]

لماذا قلب ابنك بعض صفحات دموية في تاريخ ممالكك.

سئل: ألا ترى في تناحر الممالك الفينيقية القديمة، وتحالف بعضها، أحياناً، مع الفاتح الأجنبي، على البعض الآخر، نقطة سوداء في تاريخ فينيقية؟

ـ هذه الرؤيا رؤيا من لا يعرف من تاريخنا سوى حياة السرايات. لربما كانت دور الحكم أقل ما يهم التاريخ. فما رأيك بمن يؤرخ حقبة من تاريخ المانيا بهذا العنوان: «عهد الاحتلال النابوليوني» بدلاً من «عهد بتهوفن»؟ هكذا يفعل اميل لودفيغ عندما يؤرخ لألمانيا. يكون نابوليون قد انمحى من الأذهان يوم ستبقى السمفونيتان الخامسة والتاسعة. كذلك ما رأيك بأن أؤرخ حقبة من تاريخ بيروت بعنوان «عهد السيطرة الرومانية» بدلاً من عنوان: «يوم كانت بيروت عاصمة العالم الفكرية»؟ وفي تلك الحقبة راحوا، كما يقول اليوناني ننوز، يطالبون بجعل بيروت عاصمة للعالم «لا

---

(١) سعيد عقل ـ قدموس.

يتم السلام بدون سيطرتها»[1].

صيدون يعرف ابنك أنك بشر ولستِ إلهة!

يعرف ابنك أن البشر يخطىء ويصيب. يغفر لـكِ الخطايـا ويُنشِدُ الإصاباتِ أناشيدَ قـد يرى البعض فيهـا بُعداً عن أرض الـواقع، عن الاعتدال، عن المنطق التاريخي والفلسفي والبشري للإنسان.

ولكن. . .

كيف لنا أن نطالبه بأن يضع قدميه حيث يضع الكلّ أقدامهم؟. . .

لا يملك لبنان تخوماً اقليمية ولا نسباً عرقياً ولا سوياً نطقياً ولا وحدة أي تاريخ كان ولا حتى مقومات الأمة كما تفهمها السياسة. ومع ذلك، بقي لبنان، رغم كل ما مرّ به، وجوداً قـابلاً لكـل التفسيرات، ولكـل التسميات، ولكلّ الاجتهادات في تحديده.

ابنك ـ صيدون ـ انتقائي من الدرجة الأولى.

يختار ما يشاء من أسماء وتواريخ وأفكار. يحلّق بها عالياً حيث لا مكان هنـاك إلا للقادر عـلى التحليق ومزج الفكـرة بالعـاطفة، مـزج الواقـع بالأسطورة، مزج الايجابيات بعضها ببعض، فإن نقصت واحدة، اخترع مكانها جَمالاً أتقن صناعته.

ابنك ـ صيدونُ ـ انتقائي يختار ما يحبُّ ويصوغه كما يحبُّ،

ورث الحرية كاملة واستخدمها كاملةً فرسم لوحـات تعبق بالفـرح والشجاعة والبطولة.

رفض أن يكون نسخة عن الآخرين.

---

(١) د. وليم الخازن ـ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

رفض أن يكون بارد النظرات خائف الكلمات كما «اللا».
انتقائي يحمل الحماس.
يقرر وينفذ.
يقف في وجه العاصفة دون أن يغلق الأبواب.
هذا إذا لم تكن العاصفة ـ أصلاً ـ من صنع يديه.
يصرخ معترضاً:

«يشاؤونني غير نضر الخيالِ.
كما اللا ولا عبقري الغدِ؟.
أبيت أنا قبلة الموعدِ.
سكنتُ بلادي صنعَ المحال.
سأسكنها بعد صنعَ يدي»[1].

---

(١) سعيد عقل!.

أبناء البحر

«الاكتشافات الأثرية الحديثة أكّدت، اليوم، أن الفينيقيين حطّوا مراسيهم على شواطىء البرازيل، قبل ألفي سنة من اكتشاف كولومبوس لذاك العالم.

توصّل إلى هذا الاعتقاد الدكتور سايروس غوردن من جامعة براندیس في الولايات المتحدة، وهو خبير في شؤون التاريخ الفينيقي.

ويقال: إن اللوحة الأثرية، التي حملته على الاعتقاد أن الفينيقيين بلغوا أطراف شرق البرازيل، في القرن السادس قبل المسيح، اقتُطعت من حجر عُثِرَ عليه في باراهيبا (البرازيل) عام ۱۸۷۲.

وتروي اللوحة كيف أن عشرة، من المراكب الفينيقية، غادرت جزيرة هزيون جابر في خليج العقبة، وأبحرت عبر البحر الأحمر وحول أفريقيا.

اللوحة تحمل الكلام التالي:

١ ـ نحن أبناء كنعان من صيدون مدينة الملك. والتجارة رمتنا.

٢ ـ على هذا الشاطىء البعيد، أرض الجبال. وقدّمنا ذبيحة بخور للآلهة.

٣ ـ والآلهات في السنة التاسعة عشرة لحيرام ملكنا القدير.

٤ ـ وأتينا من عصيون جابر، على البحر الهادىء. ذهبنا بعشرة سفن.

٥ ـ وكنّا في البحر معاً سنتين حول أرض حام، ثم انفصلنا.

٦ ـ بيد بعل، فافترقنا عن رفاقنا وأتينا إلى هنا اثنا عشر.

٧ ـ رجلاً وثلاث نساء، على هذا الساحل البعيد، الذي أنا متعشرت الرئيس.

٨ ـ استوليت عليه. نأمل أن تؤيدنا الآلهة والآلهات[١].

قبل كولومبس بألفي عام وصل البحارون إلى شواطىء البرازيل حاملين: الفكر مع التجارة. هكذا يقول الأحفاد.

من صيدون، إلى دمشق، مرّاً بالقدس، فأنطاكية، فالبرازيل، أقلعت السفن حاملةً إشراق الحضارة والفكر إلى جانب البضاعة.

من صيدون، إلى دمشق، مرّاً بالقدس، فأنطاكية، فالبرازيل، أقلعت السفن، يحمل بحّاروها تحدّي الدنيا «شعوباً وأمصاراً» بشراً وحجراً. يحملون إرادة البناء ينطلق البحارة منشدين، تلمؤهم الثقة والعزة:

ومن الموطن الصغير نرود الأرضَ
نذري في كل شطٍّ قرانا
نتحدى الدنيا شعوباً وأمصاراً
ونبني - أنّى نشأ - لبنانا[٢]

ينطلق البحارة منشدين:

واشرأبّتْ إلى جزيرة تاسو
تتملاه تِبرها إبريزا[٣]

وقد عبروا البوسفور، والدردنيل، والبحر الأسود، وبلغوا القوقاز من جهة، كما نزلوا قيثيرية وايطاليا:

---

(١) كمال يوسف الحاج ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٥.
(٢) سعيد عقل.
(٣) سعيد عقل قدموس.

يـوقـظون الـدنـيـا عـلى ضربـةِ المـعـولِ
مـسـتـعـمِـراً، فـتـنهض سـكـرى[1]

البحر جني أبنائه. البحر جني مجدٍ ومهابةٍ.
البحر فتحٌ لا كالفتح، فتح راقٍ، فتحٌ خيِّر.
البحر يطوّعه أبناؤه.
البحر حكاية لا تنفصل عن أبنائه.

«يومَ تجني صيدوننا الزرقة الرحبة مجداً، مهابة، وحضارهْ
ويرى الفتحُ فتحَهُ كلَّ قبر فوقَ لبنان والبحارُ بحارهْ»[2]

«بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة.
بينهما عهدٌ وميثاق.
حالهم، يومذاك، حال العربي مع الفرس والجمل. لم يكن للعربي بدّ منهما. لذا، انعكسا في مجمل حضارته.
هكذا الفينيقي والبحر. إنهما وحدة حضارية لا تتجزأ.
لا غرابة إذا جعل الفينيقي الماء عنصر العناصر الموجودة.
لقد كان الفينيقيون بحّارة ذوي مهارة فائقة. فرصدوا المظاهر الفكلية، وراقبوا نظام الرياح، وفحصوا التيارات البحرية، ولاحظوا التعاريج السواحلية»[3].

بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة.
هو رغيف خبزهم إذ لا مورد من زراعةٍ ولا صناعةٍ

---

(١) (٢) سعيد عقل قدموس.

(٣) كمال يوسف الحاج ص ١٤٧.

ولا ثروات معدنية.
بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة.
أتقنوا التعامل معه.
الطريق إلى رغيف الخبز كان أزرقَ.
وقد اعتاد الأبناء هذا اللون مذ ولدوا، بل قبل أن يولدوا.

أما قال الشاعر العربي:

فـفـي الـبـحـر مجـرى لـلشـعـوب ومـكـسـبٌ
بـتـحـصـينِ ثـغـرٍ أو بـتـحـصـيـل ثـروةٍ؟

دهش اليونان المجتمعون حول السفن الفينيقية بالزخرف الآتي عبر البحّارة، بالأساليب الصناعية، بورق البردى الأصفر عليه حروف منقطة سوداء أو حبسوا منها شراً إلى أن تعلّموها فابتسموا للبحّارة بأمان.

دهش الصيادون الجليليون عندما أشرفوا على صيدا وصور «لقد رأوا المعامل الضخمة يتدفق منها الدخان الكثيف وهي تصنع آنيات الخزف والزجاج والنحاس والحديد. رأوا الهياكل العظيمة، والقصور الفخمة، والأسواق العامرة والبساتين الخضر التي لا مثيل لها في بلاد فلسطين.

ثم رأوا الأحواض الواسعة المزدحمة بالسفن الكبيرة التي كانت تمخر عباب البحر بالسلع الفينيقية إلى أقاصي المعمور.

قابلوا بين قواربهم على بحيرة طبرية وهذه السفن الضخمة وقد امتدّ وراءها البحر الأبيض بمياهه الزرقاء الصافية. هذه السفن ستقلّهم حاملين بشارة الانجيل المفرحة إلى عواصم الأمبراطورية الرومانية»[1].

---

(١) كمال يوسف الحاج ص ١٩٥.

بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة.

لم تكفِ صناعة البورفير ولا الأرجوان ولا الزجاج والخزف ولا تقديد الأسماك.

لم تكفِ صياغة الحلى الذهبية والفضية، ولا الأقمشة المُحاكة ببراعة.

التفتوا إلى أرضهم، فإذا هي كلسية رملية.

التفتوا إلى أنهارهم فإذا هي عميقـة، قصيرة، لا تصلح للريّ ولا تُطعِمُ من جوع،

فيمموا شطر الأزرق الواسع.

غنّوا للبحر حباً.

غنّوا في البحر حباً.

«رنينُ حليّكِ من لهوِ صيدونِ
بالمجدِ، في ليلةٍ لا تُمَلْ
أباريقها خُوَذُ العائدينَ
من الفتحِ، والسكب من ذاتِ دلْ
وندمانها السافطون الأولى
يُهيبون بالعزم أن يُرتجَلْ
يقولون: «يا بحرُ، يا بحرنا،
لحدِّكَ قلنا: انتقلْ! فانتقلْ»[1].

أغنية البحّارة تزخر بالحياة.

أغنية البحّارة لحنها رنين الحليّ.

أغنية البحّارة كلماتها حديث الندمان.

---

(١) سعيد عقل.

أغنية البحّارة مشيئة! مشيئة!. الإيمان المطلق بالإرادة لا يغيب.

صوت قدموس يرجع إلينا.

«شـأ تـزلـزل دنـيـا، وشـأ تـبـنِ دنـيـا»

صوت قدموس يشارك البحّارة في ترويضهم البحر.

يـقـولـون: «يـا بـحـرُ، يـا بـحـرَنـا، لحـدّك قـلـنـا: انـتـقـلْ فـانـتـقـل»

صوت قدموس منهجٌ ورسالة: شأ، وشأ!

أغنية البحّارة تزخر بالحياة:

«رنين حِليِّكِ يوقظ صوراً
وقرطاجةً، والعصورَ الأُوَلْ
ويملأ أيدينا أنجما
نَذُرُّ على الناس منها الأقَلْ
فإنْ فاحَ زهرٌ فنحن الشذا
وإن طاب شربٌ فنحن الثَّمَلْ»[1]

الإيقاظ فعلٌ لا يكف عنه قدموس. الايقاظ بندٌ من بنود الرسالة.

البحارة يوقظون الدنيا.

ورنين الحليّ يوقظ صور وقرطاجة والتاريخ إيقاظاً رفيقاً يعبق بالموسيقار والشعر والعطر.

البحر صديق وَدودٌ لا يعرفُ ماهيته الغريب عنه.

يبدو للغريب عنه قاسياً هادراً مخيفاً.

---

(١) سعيد عقل.

«لمـا ملك المسلمون مصر، كتب عمـر بن الخـطاب إلى عمـرو بن العاص، رضي الله عنهما، أن صِف لي البحر، فكتب إليه:

«إنَّ البحر خلقٌ عظيمٌ،
يركبه خلقٌ ضعيفٌ،
دودٌ على عودٍ».

فأوعز حينئذٍ بمنع المسلمين من ركوبه.

ولم يركبه أحدٌ من العرب إلا من افتأتَ على عمر في ركوبه ونال من عقابه، كما فعل بعرفجة بن هرثمة الأزديّ سيّد بَجيلة لما أغزاه عثمان، فبلغه غزوَه في البحر، فأنكر عليه وعنّفه أنه ركبَ البحر للغزوِ.

ولم يزْل الشأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية، أذِنَ للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده»[1].

تعارف العرب والبحر، فتصادقا بعد طول هجر!

بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة.
بين الفينيقيين والماء[2] أكثر من صداقة.

لِمَ لا؟ والماء ذو أهمية مطلقة لحياة الإنسان واستمراره منذ قديم الزمان. «ففي مصر تحدثنا الأسطورة عن ولادة الإله الأكبر من مياه الغمر العظيم. وفي الهند تحدثنا الأساطير عن ولادة (براجاباتني) الإله الخالق من بيضة ذهبية كونية تشكلت في مياه المحيط الأولى.

---

(١) مقدمة ابن خلدون.
(٢) إشارة إلى طاليس الفينيقي الذي ولد حوالى ٦٤٠ قبل المسيح في مدينة ميلات. وقال: إن الماء هو المادة الأولى التي انبثقت منها الكائنات وإليها تعود.

وفي بلاد الإغريق يصف هوميروس الأوقيانوس بأنه أبو جميع الآلهة وأصل كل الأشياء. [. .] وارتباط الماء بالخلود في ملحمة جلجامش كانت له امتدادات في فكر المنطقة وفي معتقداته [. .] واستمر ارتباط الماء بالخلق في الديانات السماوية ففي القرآن ﴿وجعلنا من الماء كلّ شيء حي أفلا تؤمنون﴾[1] وفي العهد القديم: «في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلام وروح الله يرفّ على وجه المياه»[2] [. .] وقدسية المكان ترتبط عند العرب القدامى بقدسية المياه وبحيويتها [. .] كما أن ايجاد الماء أو السير فوق الماء هو من المعجزات والكرامات التي خُص بها الأنبياء والأولياء وبعض المتصوفة»[3].

فهل نعجب بعدُ أن يعزو طاليس انبثاق الكائنات من الماء وعودتها إليه؟ . . .

ينطلق البحّارة مقتحمين البر والبحرَ فاتحين، واثقين من أنفسهم يعلو صوتهم. يتميز صوت قدموس:

قلتُ: إنا سنقحمُ البرّ والبحرَ
نجرُّ الفتوحَ تلوَ الفتوحِ[4]

* * *

«نقول في اللون الزاهي إنه كالبحر»

---

(١) سورة الأنبياء.

(٢) الكتاب المقدس ـ العهد القديم ـ سفر التكوين.

(٣) ممدوح قوموق ـ ملاحم نارت الشركسية ـ ستناي وسوسروقة دمشق ١٩٨٤ ـ انظر ص ٣٥ ـ ٣٨.

(٤) سعيد عقل.

وفي الصوت القوي إنه كالبحر،
ونقول في حقول الشعير الواسعة إنها كالبحر،
ونقول في الحكمة العميقة النفس الكبيرة إنها كالبحرِ،
لا، بل نقول في المساء الصافية إنها كالبحر»[1].

* * *

صوتُ البحّارة يأتينا:

يـقـولـون: «يـا بـحـرُ، يـا بـحـرَنـا، لـحـدّك قـلـنـا: انـتـقـلْ فـانـتـقـلْ

* * *

- سئل الجبليون مرة:
- ما أعذب الأصوات؟...
فكّر الجبليون قليلاً ثم أخذوا يجيبون:
- رنين الفضة.
- صهيل الحصان.
- وقع حوافر الخيل على صخور المضائق.
- ضحكة الطفل.
- غناء الأم عند المهد.
- خرير الماء.
إلا أن أحد الجبليين قال:
- صوت البحر، ففيه كل الأصوات التي ذكرتم.

---

(۱) رسول حمزاتوف - داغستان بلدي ص ۲۹۰.

وسئل الجبليون مرة أخرى:

ـ ما أحلى الألوان في النفس؟...

فكر الجبليون قليلاً، ثم أخذوا يجيبون:

ـ السماء الصافية.

ـ قمة الجبل المكللة بالثلج.

ـ عينا الأم.

ـ شعر الابن.

ـ الدرّاق المزهر.

ـ صفصاف الخريف.

ـ ماء العين.

إلا أن أحد الجبلين قال:

ـ لون البحر، ففيه كل الألوان التي ذكرتم[1].

* * *

بين الفينيقيين والبحر أكثر من صداقة.

صيدا وصور تغسلان قدميها على الشاطىء الأزرق.

تلملمان الصدف المُلوَّن. تصنعانه عقوداً. حلياً يوقظ الدنيا.

تبسمان للآتين برقة. للغرباء كما للعائدين.

«مَنْ عنده بحرٌ، يأتيه كثيرٌ من الضيوف»[2].

ومَنْ يأتيه كثيرٌ من الضيوف لا بدّ وأن يكون مضيافاً، كريماً، متهلل الوجه!

---

(1) نفسه ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(2) نفسه ص ٢٩٢.

ذكّر البحّارون قدموسَ بالحبيبة. أوقظه رنين حليّها. فهرع إليها تحدوه الرغبة في لقائها الودود أبداً.

تحدوه الرغبة في انتعاشٍ فَرِحٍ ينتقل منها إليه.

يعرف أنها تنتظره.

تنتظره بلا موعد.

تنتظره دائماً.

يعرف أنه لن يلقى منها إلا ابتسامات حلوة.

يعرف أنها مثله. تماماً مثله. لا تحب «اللا» تجدها عقيمة. باردة. لا لَوْن لها.

شباكها مفتوح وعطرها يملأ أنفه. يرمي زهرة على سريرها تطلّ ضاحكة.

يتقن قدموسُ أحرف الكتابة. ويتقن قراءة العينين أيضاً.

مندفع هو كالعادة. لا مواربة. لا خوف. لا تراجع. ينادي «رندلى» يدعوها ببساطة إلى الأزرق الفتّان:

«أنتِ واليختُ، وأن نبحرا
في الرياحِ الليناتِ الهبوبْ
في التعلّات، وخفق الطيوبْ
في الذُرى
من خضمٍّ ليلكي الغروبْ
كادَ، مذْ أومأتِ، أن يزهرا»[1]

* * *

(١) سعيد عقل ـ رندلى ـ أنتِ واليختُ وأنا.

تفتح رندلى عينيها دهشة كطفل يسمع أسطورة تهزّ رأسها مومئةً أن يكمل حديثه الشيق الحلو.

«أنتِ، واليختُ، وأن نَغْرُبا
آخِرَ الأرضِ ، عن العالمِينْ،
عن عزيفِ الجنِّ، والسّامرينْ،
عن رُبى
طُرِّزَتْ بالوردِ والياسمينْ،
نبتغي، خلف السُّهى، مطلبا...»

تبسم رندلى. تتخيل الرحلة حقاً. يتابع:

«أنتِ واليخت، وأن نُنْزِلا
في المساء اللؤلئي الغيومْ،
شاطئاً نسْياً بإحدى النجومْ
حُمِّلا
منذ ضاحكناه هَمَّ الهمومْ
آه! ما أجملَ، ما أجملا»[1]

تهرع رندلى حافية القدمين على الشاطىء الرملي قدماها توحيان له بالشعر. تحكيان حكاية حبٍّ. تحملان الحبيبة إلى لقاءٍ. تحملان الشاعر إلى عالمٍ من الحب ساحر.

«قدماكِ - خلّيني وطيفَ منامْ -
ريحانتان... وقال زوجُ حَمامْ..

---

(١) سعيد عقل - دلزى.

في الرونقِ ارتحتا فهل غَطَستْ
دِفلى تردُّهما. وضجَّ خزام؟..
أنا منذ ما دنتا شعرت بها
كفي تلملمُ نفحةً وكلام..
قدماك قد حكتا حكايتنا
أيام نحن تأوّهٌ وسلام»[1]

تضحك الفتاة للقصيدة. تتأمل قدميها كأنها تراهما للمـرة الأولى. كأنها لم تعرفها قبل هذه القصيدة.

يتراكضان! اليختُ أبيض كالحلم. ينتظر الإقلاع. هو أيضاً لا يعرف «اللاّ» عدوة العبقرية. هو أيضاً يبسم فاتحاً ذراعيه لهما.

ينشد الشاعر المحب:

يا يختها الأبيضْ
اقلِعْ بنا
كادَ السنى
من حسنها يمرضْ
أقلِعْ بنا،
يا يختها الأبيض.

* * *

قد أقبلت تطربْ
أختُ الشعاعْ

---

(١) سعيد عقل ـ رندلى.

أرخِ الشراعْ
وابلغ بنا الكوكَبْ.

* * *

ما هَمّ، طِرْ، ما همْ
هذا الزَّبَدْ
طأ الجَلَدْ
واهزأ بهول اليمّ

* * *

سُمِ الرياحَ الويلْ
هِجِ البحارْ
خلِّ الدّوارْ
يصيبُ جسمَ الليلْ

* * *

دَعْ رِندلى تهزجْ
دعْ رِندلى،
واسكر على
أغنيةِ الدُّملَجْ

* * *

هيّىءْ لها الوعدا
وعند الغيومْ
قل للنجوم:

كوني لها القصدا

* * *

هذاك نجمٌ عَبَرْ
في دربنا
عرَّج بنا
على خليج القمر.

* * *

يا يختُ جزتَ البَوْنْ
لم يبق شيٌ
سهران حيٌ
إلّاك خلف الكوْنْ.

* * *

لا قلت، يا يختُ: أينْ؟
أين البحارْ؟
لك القرارْ
في منتهى عينينْ!
أين البحارْ؟
لا قلت، يا يختُ: أينْ[1]؟..

رحلة بحرية أم رحلة سحرية؟...

رندلى نشوى. لا تعرف القلق. لا تعرف الغضب. وكيف تعرفهما

(١) سعيد عقل ـ رندلى ـ قصيدة اليخت الأبيض.

وقدموس شاعرٌ يجيد اكتشاف الجمال والتعبير عنه. تحسّ معه أنها أميرة آتية حقاً من بلاد الحلم. لَوْ لم يعرّج اليخت الأبيض على خليج القمر، ما عرفت رندلى أن الليل يركض. قطبت!

اليخت يعود أدراجه.

لا يحب قدموس المواعيد المنظمة. هو يراها متى شاء دون ساعاتِ انتظار. ألا يحمل المشيئة دستوراً يطبقه؟...

لن يَعِدَ فتاته برحلة أخرى ولا بعقد نجوم. تعرف هي أنه سيفعل هذا في لحظة اشتياق.

اليخت يقترب أكثر.

تبسم بدلال:

«إن شباكي على الطريقْ
ارشقِ الحصى فأستفيقْ»[1]

أيضاً فعل الإيقاظ يلتصق به، حتى مع الحبيبة الرائعة. وحين ينزلان إلى الرمل بأقدام عارية، وتلامس حباتها الرطبة الؤلؤية جلدهما يقفان ناظرَين إلى البحر يردد أصداء نشيد يقترب.

رفاقُه البحارة عادوا.

الليل مقمرٌ والقيثارة موجٌ يرافق الكلمات.

تشد رندلى كفّ قدموس. تسمع الكلمات التي بالأمس أسمعها إياها مشروع أغنية له ولرفاقه ينشدونها كلّما عادوا إلى الوطن.

كلّما سمعتها عرفت أن حصى سيُرشق على شباكها إذا عاد الفتى من رحلة قطف فيها المجدَ.

---

(١) سعيد عقل ـ أجمل منكِ لا ـ قصيدة إغراء.

إلى البلدِ الوادعِ الأسمرِ
نسيجِ الأساطيرِ والذكرياتْ
وأغنيةُ السفن المقلعاتْ
محمّلة الفكر للكائناتْ
وللأعصُرِ

* * *

إلى البلد الحلو حيث الترابْ
غبارٌ ينفّضه في الإيابْ
جوادُ البطلْ
تودُّ الدولْ
لو أن لها منه غارْ.

* * *

إلى البلد الحلوِ حيث التلالْ
ركامُ حنين
بناها الخيالْ
وحيث الفضاء
ضياءٌ
يشيع من الياسمين[1].

* * *

---

(١) سعيد عقل ـ رجوع البحارة.

عوالِمُ الحبِّ

«لا تدخين، لا قهوة، لا شاي، ولا خمرة.
ولماذا أدخن وأشرب؟..
التبغ لا أدخله إلى بيتي.
وفي مجالسي لا أحد يدخن.
هذه كلها من العادات البشعة التي لا أحبها.
لا أدخل إلى بيتي إلا الأشياء الجميلة.
أمي لو لم تكن جميلة لما علقت صورتها على الجدار»[1].

بين البشاعة ـ في كل صورها ـ وبين شاعرنا عداوة دائمة وطلاقٌ لا رجوع عنه.

اختياريٌّ هو!. من الدرجة الأولى!.
مزاجيٌّ من النوع الراقي.
يزيح ناظريه عن كل ما يزعجه.
يعتبره غير مخلوقٍ أصلاً.
فلا يرى إلا ما يحب هو.
ولا يفكر إلا بما يشاء هو.
أما قلنا إن دستوره المشيئة؟
يحيط نفسه بالجمالات،
يحيط أفكاره بالجمالات،
يحقق لنفسه الرضا. يحقق لنفسه الهدوء الصافي.

---

(١) سعيد عقل ـ حديث صحافي.

يحقق لنفسه ما يشبه حالتَه أثناء إبداع فلذة من شعره.

- يرى من البحر امتداده وزرقته اللازودية.

يرى من الحب النقاء والمواعيد الجميلة.

يرى من المرأة، تلك المبتسمة أبداً. المحبّة أبداً التي تعرف الدلال ولا تتقن العقاب وإنْ هددت!

يرى من الوطن وجهه المشرق العملاق. يضعه في مصاف عمالقة الأوطان.

مَنْ يجرؤ أن يعترض على كل هذه الأفكار؟...

مَنْ يجرؤ أن يأخذ بيد شاعرنا إلى تلاطم الأمواج أو مآسي الحب ودموعه أو المرأة الشريرة القاسية المنتقمة؟.. أو الخناجر التي غرست في خصر الوطن بمساعدة بعض أبنائه؟...

سينال «لعنة» زحلاوية مَنْ يجرؤ على الإشارة إلى أمرٍ من هذه الأمور...

إن جرؤتَ، قد يرشقك بنظرة غاضبة وشتيمة أقلّها أن «رأسك فاضٍ» أو أنك «أميّ» أو «جاهل» أوْ لا ترى «الجمال» بل أنت صديق «البشاعة» فأنت بهذا أعور ترى بعين واحدة أو أعمى إذ لا ترى إلاّ اللون الأسود والقاتم.

جان بول سارتر حين أراد شرح نظرية الالتزام في الأدب، سئل لماذا إذن لم ينضم إلى الحزب الشيوعي فدهش للسؤال والسائل ونعته بالأحمق. ونعت مرة من سمّاه «بالرأس العنيد» نعته بأنه واحد من «ذوي العقول الدنيا»، ونعتَ من سأله المزيد عن الالتزام بأنهم خبثاء وذوي عقول جدلة وأنهم يتفوهون بالحماقات «ذلك أنهم يقرؤون مسرعين دون أن يتدبروا،

ويحكمـون قبل أن يثبتـوا» كما وصف النقـاد أنهم «لا يفهمون مـدلـول الأدب»[١].

«النثر فِكر، والفكرة نعيها، وهو صور والصورة نعيها، وهو عواطف والعواطف نعيها. عناصر النثر جميعاً عناصر وعي. النثر في طبيعته وعي بوعي. أما الشعر فلا».

إنـه «حالـة من لا وعي فوق الـوصف لا تشرح، جوهـرهـا أشبـه بمـوسيقى، بها يتحـد الشاعـر حميماً مـع الأزلي من حقائق هـذا الكـون المهيب».

الشعر؟ إنه لسراة العقل، لطبقة مصطفاة، باستطاعتها التذوق. أما النثر فللتلامذة ـ وقد يكونون خارج المدارس[٢]:

في وعيه ـ إذن ـ يغضب من تلميذ لا يفهمه هو الأستاذ الشارح أفكاراً فلا بأس إن استعمل العصا، وعصاه كلمة نارية!

لن نطرقَ باب الأستاذِ الواعي، بل ندخل عوالِمَ الشاعر الغارق في نعيمٍ بناه هو وشاءه هو.

«لا أُدخِل إلى بيتي إلا الأشياء الجميلة»

أيضاً،

لا يُدخِل إلى عوالمه العاطفية والفكرية إلا الأشياء التي تحمل الطابع نفسه!.

---

(١) جان بول سارتر ما الأدب ـ ترجمة وتقديمة وتعليق د. محمد غنيمي هلال ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ الفحالة ـ القاهرة ـ ص ٧ ـ ٨.

(٢) من مقدمة المجدلية.

لا يعرف شاعرنا الدروبَ التي تمتلىء بالأشواك. إنه يبتعد عنها.
لا يعرف الشبابيك التي وراءها امرأة تبكي إن غاب وتغضب إن تأخر وتهدد باستبداله.
لا يعرف شاعرنا من الأشياء إلا ما يريد هو أن يعرفه عنها.

عوالمه مميزة حلوة.
في كل قصيدة رائحة عطر، وباقات زهر، نجوم، كواكب، أقمار، سفرٌ، مجدٌ، وطنٌ، حبٌّ، ألوان زاهية منشورة على الشبابيك المفتوحة للشمس والهواء.
يقدس الوطن رافضاً أن يمسه أحدٌ بسوءٍ أو أن يشير إليه إشارة اتهامٍ أو خيانة أو رشوة.
يقدس المرأة رافضاً أن تصفها كلماته جسداً وشهوة رخيصة.
وطنه من صنع يديه.
امرأته من صنع يديه.

«سكنتُ بلادي صنع المحال
سأسكنها بعدُ صنعَ يدي»

أيضاً:

«وكوني كما شاءت أصابعُ خالقٍ
أنا بعضها؟ هاوي الهوى، ناقش المجد؟[1]

امرأته، كما وطنه، أبعد شيء عن الخطيئة.
تعطي وتعطي وهو بالتالي يأخذ منتشياً. يصوغ الأخذ شعراً من أسفل قدميها حتى أعلى رأسها.

---

(١) دلزى.

أينما مرّت تلاحقها عيناه. يلاحقها لا وعيه فيصوغ مرورها شعراً يعلّقه شراعاً على مركبٍ يمخر عباب الأزرق.

يهتف دائماً أنه يحبّ، يحب:

«أواهُ حبُّك! لا أحببتُ قبلُ لا
أحبّ بعدُ... تأنَّقْ واغلُ، يا ثمنُ»[1]

يحبّ:

«وما الهوى؟ مطرحٌ من
غَمامةٍ فوقُ، تعلَقْ..
تضيعُ فيها يدا مَنْ
بعمرِه يتصدّقْ»[2]

يحب:

«أموتُ بك... احلولي، كما الطيبُ في الوردِ،
وزوري ولو بالوعدِ، يا أجملَ الوعدِ»[3]

حين يحبها تشرق. تصبح قصيدة يصوغها بفعل الهوى وفعل الاحساس الغامر بالجمال. لذا فكلما أحبها، كلما أعطت، وكلما أعطت كلما أبدع.

لا يحمل السوطَ شاعرُنا،

ولا عُقَد شعراء الشهوة الذين يشربون لذة الجسد حتى الثمالة ثم

---

(١) نفسه ـ تشرّد.

(٢) دلزى ـ الآلهة الصغيرة.

(٣) دلزى ـ أموت بك!

يجلدون بوقاحة المرأة التي أعطت.

لا يتقن الحبَّ إلا النخبة.

فالحب لم يخلق لرعاع الرجال ولا لرعاع النساء ولا لرعاع الشعراء. الأمر غايةٌ في البساطة.

لكنه أيضاً غايةٌ في الندرة.

أحبَّها. هي أيضاً أحبته. بنفس الدرجة، بنفس الرقيّ. بدون حسابات ولا مخاوف ولا أوهام ولا خجل من أن تبوح. وهل يخجل العصفور إذ يغرّد وهل يخجل البحر إذ يمتد، وهل يخجل الشعر إذ يُكتَب؟...

ها هي ذي تسأل الأقحوانة عن حبيبها:

«وكدتُ كدتُ من هوىً أطيرْ،
قطفتُ أقحوانة تُمَدّ
عنقاً، ورحتُ بيدٍ أعُدُّ
«يحبني، يحبني كثيرْ»
يُجَنُّ بي، يصدُقُني، يَجُدُّ،
«يكذبُ.. لا.. بلى» وأستجيرْ
بالورقِ الأخيرْ...
وخوفَ أن أُصَدّ
وأقحوانتي تقولْ
إنك لا تحبني، للعُمْر، للأبَدْ،
آخذها بيدْ
وبيدٍ أنثرها بَدَدْ

ويحي! وتطوي سرّكَ الحقولْ»[1]

فهي إذن لا تريد حباً عادياً أو حباً ينتهي في زمن معين ولو طال سنوات. هي تريد حباً «للعمر، للأبد».

هي تريد ارتباطاً لا تكسره السنوات. تريد أن يبقيا درباً وسائر، وعداً وموعود. ترفض الكلمة الأخيرة للأقحوانة خوفَ أن تخبرها بأن انتهاءً لهذا الحب سوف يُرسَمُ لكنها تعود فتهرع إلى عرّافة وفي عينيها قلق على مصير هذا الحب، على حياته.

هي لا تريده أن ينتهي.

وهل يريد أحدنا لسعادته أن تنتهي؟...

«خبرتْني عرّافةٌ أنك الدربُ
وأني في الدربِ طاب شرودي.
صَدقَتْ يا تُرى؟.. ظننتُ سنبقى
أنا موعودةٌ وأنتَ وعودي.
ربما حدّثوا بنا في العشايا،
أو مررنا شذاً ببالِ الورودِ.
أو بنا ربّما تغنّتْ يماماتٌ
وطارتْ بالعودِ ريشةُ عودِ.
خبّرتني عرافة أنني الحسنُ:
محيّايَ مطلعٌ من قصيدِ!
أغنياتٌ شَعري وأدريه كالريحِ
على قامةٍ كشلِ الجريدِ.

---

(١) سعيد عقل. أجمل منكِ لا.

وأنا، في البزوغِ، سوسنةُ الحقْلِ
تغاوَتْ كسلانةً في الجرودِ.
آهَ منها الصباحُ، وانتحرَ الشوكُ
وجُنَّ الندى على الأملودِ.
أنا هذا وزِدْ وزِدْ.. أنا لا أوجد
إلاّ إنْ كنتَ أنت وجودي!
إنْي ولو صحَّ أن زَنْدَك ناداني
وجيدٌ منك انتهى فوق جيدي
ورماني الذي رمى فتنة الليلِ
وباهي حُقّانِ خلفَ برودي
وتأمّلتُ رأسَك الصعب في كفّي
أشقى أقول: «يا معبودي».
لأمرت الوجودَ أنْ ضِعْ، من أجلِ
حبيبي ضِعْ وانوجِدْ من جديدِ»[1]

أحبته كل هذا الحب. وباحت كلّ هذا البوح فما استبدّ، وما أخذته الخيلاء ولا شعر أنه يجب أن ينتقل ليحقق انتصاراً مع حلوة أخرى. أحبت وباحت فما كان الوصول إلى هذه المرحلة بالنسبة لشاعرنا الغاية بل كان بداية الطريق. ينعشه حبها. تنعشه كلماتها:

أدّعي أني بعينيكِ وُلِدْتُ...
أأنا الشمس أنا حتى عُبدتُ؟
يا خذيني مَعَ هُدْبٍ ضاربٍ

---

(١) دلزى.

فوق، إن قال: «زدِ الأنجمَ» زدت.

كان لي من حَظٍّ عينيك على
الأرضِ أن زُلزلزتُ كالأرضِ ومِدْتُ

لي هما إيوان كسرى وعلا...
وهما لي بعلبكٌ وصَعِدْتُ...

مَلِكٌ؟ لا إنما العطرُ أنا،
منذ ما كنتُ، إلى الوردِ رُدِدْتُ.

وأنا للناسِ سرُّ الكاس، بي
سكروا ويحي! وبالسكرِ وَعِدْتُ.

أدّعي أني بعينيكِ وُلِدْتُ [1]

حب متبادَل؟... تحاكٍّ؟

هما مثل الوطن المرسومِ في لا وعي شاعرنا. انفتاحٌ وسعادة وعظمة. هما عطاءٌ وبذلٌ.

يتنافسان في العطاء. يتنافسان في الحبِّ. يملأ كل واحد منهما سفينته أحلاماً وأشواقاً وغزَلاً ويبحر بها إلى شاطىء الآخر. يمنحه دون مقابل كلّ ما لديه ويعود كلاهما محمّلاً بشيء أكبر من أن يوصف وأعمق من أن يُدرَك.

يصبح هو هي وتنقلب المعادلة أيضاً.
لا يهم مَن يأتي الآخر أولاً.
لا يهم من يبوحُ أولاً.

---

(١) دلزى.

لا يهم مَنْ يفتش، إن غاب أحدهما، عن الآخر ويلقاه.
لا يهم والدربُ إلى الآخر يعرفه كلاهما.

فإذا عنَّتْ لكَ الذّكَرْ
وإليّ هزّكَ الفراقْ
وإلى العناقْ
إنّ شباكي على الطريقْ
ارشق الحصى فأستفيقْ
بدلالٍ أُبعِدُ الأستارْ
فأنا من قبل موعدِكْ
يلتوي خصري على يدكْ
مثلما لحنٌ على قيثارْ(١)

يرشق الحصى على شباكها. يسمَعُ صوتها تستيقظ من انتظار يحسّ بوقع أقدامها. يرنو الدرج إليه.

الدرجُ الوشوشَ: «طِرْ إليها،
حسناؤك البيضاء في انتظارْ»

والقال: «عمري قفزتا رجليها»
بالبال ذاك الدرج الثرثارْ(٢)

الانتظار على غير موعد مسبق يحمل الدهشة والشعر معاً. ولكن إنْ

---

(١) أجمل منكِ لا...
(٢) أجمل منكِ لا...

طال، واستيقظتِ الحلوةَ لا على حصى رُمِيَ على شباكها أو وردة وقعت في سريرها، فركت عينيها وراحت تفتش عن أثرٍ اعتادت أن تراه.

تعاقبه؟... تعاقبه؟...

تذكر كم جرَّ عليها مرة عتابُها. تذكر كيف جاء وقتها، كطفلٍ صغير يرنو إلى أمه بنظراتٍ منكسرة. تذكر صوته مليئاً بالألم:

«تعاتبينَ؟ عتابي أنتِ والوجَعُ...
وا آهةَ العودِ من نائينَ ما سمعوا!

أنا، غيابُك، إن أغرقْتِ، آخذُهُ
بالجفْنِ، أخلُقني منه وأبتدعُ

ذكرتُ؟.. أنتِ اذكري أيامَ طبتُ أنا
أغنيةً عندها الأفلاكُ تجتمعُ

اسكنتكِ الصعبَ منها: ما الوجودُ وما
شدُّ الوجودِ بخيط الوهمِ ينقطعُ

والوردُ أنثُرُه تعويذةً لخطىً
مضيّعاتِكِ في شِعرٍ به وَلَعُ

وأن تكوني.. وما صدّقتُ... لا تعِدِي
بأن تكوني... كثيرٌ ذلك الدلعُ[1]

تعاتبه؟.. تعاقبه؟...

لا... كثيرٌ ذلك الدّلَعُ. هو عوّدها أن تحب حباً خالياً من الغضب. فالحب إن يعرف الغضب يكون مازال ناقصاً.

---

(١) دلزى.

الحب كالشعر.

إنما «قوامه هدوءٌ خالصٌ تتلاطم فيه فِكَر وصور وعواطف، هدوء يجعل النفس، ولا شيء يفجأها أو يعكر صفاءها، منطويةً على ذاتها، أعماقها على أعماقها، حتى لَتغدو أكثر تآلفاً مع حقائق الكون، بل تغدو وحقائق الكون شيئاً واحداً، فإذا هي فوق هذا العالم بآلامه ونقائصه، لا تصطدم عمياء بأي نظام تجهل»[1].

الحب كالشعر وهي تحب... بالتأكيد تحب.

وكما تنتظر ينتظر هو.

تعودُ بالذاكرة للقاء هرعت هي فيه إليه. تصغي لقصيدة أنشدها:

«أتذكّرين؟ مساءَ زرتِ
فركتُ عيني... لم أخبّي
أنا قلتُ ـ وا كِذباهُ! ـ
هذي الشمس هذي الشمس قربي»[2]

تذكر كم كان سعيداً. أوَ تنتظر بُعدُ والشوق يناديها؟...

كثيرٌ ذلك الدلع.

تقف على شباكها. تنظر نحو بيتِه. تتنشق طيبه.

يرفّ قلبها. تغني:

من صوبِ بيتكم يهب طيبْ
الله، يا حلوُ، ارتفقْ بيا

---

(١) مقدمة المجدلية.

(٢) دلزى.

مُرْ، لا يمر الطيب قربيا
أو أتهاوى في غوى المغيبْ

همْتَ بخصري ذات أضحيهْ
هممتَ أن تلمُسَ.. لم هممتْ

هذي أنا، لذكر ما اعترفت
تحملني إليك أغنيهْ

ما شعري فتنة فتنتْ
طرنا لقولٍ فُتَّ من عنبرْ

طرنا أنا وقبلة وأنت
وعقدة.. والشعر الأشقرْ

دنياي أشعارك بي تدورْ
«ها هو لبنان افرشي الزهَرْ
مدي يداً للشمس هذي صورْ
ها بعلبك استوقفي القمرْ»

يلجُّ هذا الطيبْ، هل أجيبْ؟..
نداءُ بيتكم بسمعي

معي الهوى وقبلتي معي
طيبٌ أنا أحْمَل طَيَّ طيبْ..[1]

يلجّ الطيب والحلوة.

---

(١) أجمل منكِ لا.

على الشباك تنتظر. تنتظر الصوت من داخلها ينبعث يأتيها. يغنيها هو عبر نسمة تداعب وجنيتها:

مُرّي ببيتي اليومَ، بيتي
شمعتان وبعض كُتُبِ
هو معبدٌ لكِ، قد يطيرُ
وقد يغرِّبُ فوق سحبِ[1]

تهرع الحلوة حافية القدمين. يضحك الدرج. يقص حكايا الحب للزيزفون.

يقول: هذا الشاعر عرف كيف يجعلها تحبه. السرّ يا صديقي الزيزفون أنه أحبها. بصدق، أحبها.

يقول: هذا الشاعر تعامل مع المرأة كما تحب المرأة، فلا هو ادّعى حباً عذرياً يجلب العذاب له ولها فحبسها في أنانية ممقوتةٍ،
ولا هو أسفّ فما رأى فيها سوى جسد وشهوة تشتعل ثم تنطفىء، يدعوها حيناً إلى حريةٍ مشوهة تعتمد الجسد عموداً فقرياً لها، وحيناً يجلدها بسوط الحرية ذاته.

مسكين مَن لا يعرف أن النساء، كل النساء، يحببن السكن في غيمة وتجرع كؤوس الدلال، والحبّ يأتيهن بالدهشة والفرح في آن.

مسكين مَن يعتقد أن النساء يهوين الدموع والعذاب والقلق.
شاعرنا أحبّ فأهدى حبه وشاحاً مطرزاً بالنجوم وخيوط القمر والشمس.

---

(١) دلزى.

شاعرنا أحبَّ فلملم الفرح لحبيبته.
زرع على شفتيها الضحكات.
غنى لها بوَلَهٍ.
فحصد بدوره حباً ولا أحلى.
ولــطالمــا وشــوشــتُــه: «طِــرْ إلــيــهــا
حَــســنــاؤك الــبــيــضــاء في انــتــظارْ»
ولطالما طار.
وها هي الآن تطير إليه. هكذا الحب...
فليهنأ مَن يجده في هذه الصورة.
يتنهد الدرج. يقص حكايا الحب للزيزفون.
رمالُ الشاطىء تغسل قدمي الحلوة وتغسل آثارهما أيضاً.
لن تعرف أمها هذه المرة.
لن تسألها عنه. فالبحر، صديقُها، محى الدرب إلى بيته فإذا ما رأى الأم في لهفة تسأل عن الحلوة، تظاهر أنه يستحمّ بالنجم حيناً وبالقمر اللؤلؤي حيناً رخر.
عوالمُ الحب لم تخلق لرعاع الرجال.
ولا لرعاع النساء.
ولا لرعاع الشعراء أيضاً.
المصطفون المتذوقون الشعر ابن اللاوعي،
وحدهم قادرون على الدخول إلى هذه العوالم.
مهلاً قدموس.
قبلَ أن تبهرك الشمس الآتية إليك هاربةً من أمها، مشتاقة، فلا تعود

تصغي إلاّ لدفئها.

اعذرني.

إذ كنتُ، مثلك، انتقائية، أختار ما يروق لي أنا وما يعجبني أنا.

فما حاولت طرق بابِ بيتك واعياً، أستاذاً، مرشداً، تحمل العصا.

ولا أردت الجلوس مريدةً أو تلميذة.

بينما وجدتني، رغماً عني، أدخل عوالمك الأخرى أبحر في مركب فينيقي إلى وطنٍ صنعتَه في اللاوعي، إلى حبٍّ صنعتَه في اللاوعي.

تغضب، قدموس، إن قلت إني تمنيتُ لو لم تعش وعيك أبداً، إذ روعتك تكمن في هذا اللاوعي الجذاب،

تكمن في هذه اللقيات التي تثير الأحلام لا العواصف!.

تغضب قدموس؟...

لن تغضب.

وإن فعلتَ. ما همّ؟.

إيمان بقاعي
٥ حزيران ١٩٩٤
بيروت

مختارات

أحبك

أحبك في ذلة الراكع ... وأحيا على أملٍ وادعِ
وأعرف ألا أبوح بحبي ... فأبقي له مسحة الخاشعِ
لحسنِك، كالطيف، شيء ... كئيب يهيم على شاطىء قابعِ
تجنبه نسمة المنحنى وتطرقُ ... من لحظها الفازعِ
تُراه من البسمات الثكالى ... وآناً من النغم الضائعِ
فيا بوح لا تخدش الصمت ... منه ومن هدأة الحلم الشائعِ

* * *

أحبك منكسر الطرف ... خوف انفلاتك من منظرٍ طامعِ
وأمسح من عبرتي في الخفاء ... فلا تقعين على دامعِ
وثغركِ لي فلة الفل ... باتت يتيمة ذاك الشذا المائعِ
فذكر الربيع على سمعها حرام ... وذكر الهوى الراجعِ
سألتكِ لا تسألي فيم ... أسكت عمري، إلى قربكِ الشافعِ
وقربك لي معبد لا يمس ... يزار ويلمس من شاسعِ
أحط به لفتتي من بعيد ... وأمضي على لذة القانعِ

نشيد العامل

أعمل لا أطالب
أعطيهم أزيدْ
ما نائِلٌ ما غالِبْ
إلا يَدق تبدعُ ما تريدْ

* * *

ما لذتي النّعابْ
أنا أنا النشيدْ
أبدّل الخرابْ
قبابْ
أشيدْ
أعمدةً تضحكُ للسحابْ

* * *

أقول للترابْ
كنِ الذهبْ
ويا خشبْ
كنِ الطرَبْ
واللحنَ والربابْ

* * *

أفجّر القوى
أخرّم الحديدْ

أفرِغ ذَوْقاً وغِوى
أنقش في الصخرِ الهوى
أبني وأعليهِ الغدَ الجديدْ

* * *

أعمل لا أطالب
أعطيهم أزيدْ
ما نائِلٌ ما غالبْ
إلا يدٌ تبدع ما تريدْ

لي صخرةٌ

من أين، يـاذا الـذي استسمتـه أغصـانُ
مـن أيـن أنـتَ، فـداك السـروُ والـبـانُ
إن كـنـتَ مـن غـير أهـلي لا تمـرَّ بـنـا
أو لا فـما ضـاقَ بـَابـن الجـارِ جـيرانُ
ومَـنْ أنـا؟. لا تسـلْ. سـمـراء منبتـهـا
في مـلتـقـى مـا التـقـت شمسٌ وشـطآنُ
لي صـخـرةٌ علّقت بـالـنجـمِ أسكـنُـهـا
طـارت بهـا الكتْبُ قـالت: تـلك لبـنـانُ
تـوزعَـتْـهـا هـمـومُ المجـدِ فـهـي هـوىً
وَكْـرُ الـعُـقـابـين تـربى فـيـه عِـقـبـانُ
أهـلي ويَـغلون، يـغـدو المـوتُ لعبتَـهـم
إذ تـطلّعَ صـوبَ الـسـفـحِ عـدوانُ
مـن حـفـنـةٍ وشـذا أرزٍ كـفـايـتـهـم
زنـودهـم إن تـقِـلَّ الأرضُ أوطـانُ
هـل جـنـة الله إلا حـيـثـما هـنِئـتْ
عيـنـاك؟ كـلُّ اتـسـاعٍ بـعـدُ بهـتـانُ
هـنـا عـلى شـاطـىء أو فـوق عـنـد رُبىً
تـفـتّـحَ الـفكـرُ قـلتَ: الـفـكـر نـيـسـانُ
دنـيـا إلى نـقـطة شُـدَّت وهَـرَقَـتْ
دمـاً ألا إنَّ خُـلْقَ الحُـرِّ سـلطانُ

كـنّـا ونـبـقـى لأنّـا الـمؤمـنـون بـه
وبـعـدُ فـلـيـسَـعِ الأبـطالَ مـيـدانُ[1]

(١) كما الأعمدة.

غنيت مكة

غنيتُ مكةَ أهلَها الصَّيدا
والعيدُ يملأ أضلعي عيدا
فرِحوا، فلألأ تحت كلِّ سما
بَيتٌ على بيتِ الهدى زيدا
وعلى اسم ربٍّ العالمين علا
بنيانهم كالشهبِ ممدودا
يا قارىء القرآنِ صلِّ لهم
أهلي، هناك، وطيب البيدا
مَنْ راكعٌ ويداه آنستا
أن ليس يبقى الباب موصودا
أنا أينما صلى الأنام رأتْ
عيني السماءُ تفتحت جودا
لو رملةٌ هتفت بمبدعها
شجواً لكنتُ لشجوها عودا
ضجّ الحجيج هناك فاشتبكي
بفمي هنا وُرْقُ تغريدا
وأعزُّ، ربي الناسَ، كلُّهُمُ
بيضاً فلا فرّقتَ أو سودا
لا قفرة إلا وتخصبها
إلا ويُعطى العِطرَ لا عودا

الأرض ربي، وردةٌ وُعِدَتْ
بك أنت تقطف، فاروِ موعودا
وجمال وجهِكَ لا يزال رجا
يُرجى وكلٌّ سواهُ مردودا[1]

(١) كما الأعمدة.

شامُ

شامُ، يا ذا السيفَ لم يَغِبِ
يا كلامَ المجدِ في الكتبِ
قبلك التاريخُ في ظلمةٍ
بعدكِ استولى على الشهبِ
سكرةٌ يومُك، ما الكأسُ
بالكأسِ دُقَّتْ؟ ما ابنةُ العنَبِ؟
لي ربيعٌ فيكِ خبأتُهُ
ملء دنيا قلبي التعبِ
يومَ عيناها بساط السّما
والرماحُ السّودُ في الهُدُبِ
تلتوي خصراً فأومي إلى
نفحةِ الناي: ألا انتحبي
أنا في ظلّكَ، يا هدبها
أحسبُ الأنجمَ في لُعَبي
طابتِ الذكرى فمن راجعٌ
بي كما العودُ إلى الطربِ
شامُ أهلوكِ إذا هم على
نُوَبٍ قلبي على نُوَبِ
أنا أحبابيَ شعري لهم
مثلما سيفي وسيف أبي

أنا صوتي منك يا بردى
مثلما نبعك من سحبي
ثلجُ حرمونَ غذانا معاً
شامخاً كالعِزِّ في القُبَبِ
وحّد الدنيا غداً حبكِ
لاعبٌ بالريحِ والحقبِ[1]

---

(١) كما الأعمدة.

إغراء

قصرُنا عالٍ، على الغيومْ
وعلى شرفته الزهَرْ
قد تدلّى يكتمُ الأثَرْ
من ثوانٍ قبلةٍ تدومْ
فإذا عنّتْ لك الذكَرْ
وإليّ هزّكَ الفِراقْ
وإلى العناقْ
إن شباكي على الطريقْ
ارشُقِ الحصى فأستفيق
بدلالٍ أُبعِدُ الأستارْ
فأنا، من قبل موعِدكْ
يلتوي خصري على يدِكْ
مثلما لحنٌ على قيثارْ[1]

---

(١) أجمل منكِ لا.

درج

الدَّرَجُ الحالي بزيزفونْ
والفوقَهُ تُعرشُ ياسمينَهْ
تكوكب السكينهْ
للحلوة التخطر كالظنونْ
الدرج الرنا إليّ عهدا
والكادا لي يشهق من دلالْ
يقول: جُنَّ جُنَّ أو أشُدّا
عليكَ بالأزهرِ والظلالْ
الدرجُ الوشوشَ: «طِرْ إليها،
حسناؤك البيضاء في انتظار»
والقال: «غمري قفزتا رجليها»
بالبال ذاك الدرج الثرثار

الوعد الضائع

ما همّني؟ والطيبُ لا يَخمُدُ
إنْ مرَّ، من دوني أنا، الموعدُ
غداً، أجيءُ الدار أخلو إلى
بقيةٍ من عهدها تُعبَدُ
تهشُّ لي حجرتها غضَّةً
والجُذْرُ، والأستارُ، والمقعدُ
أشياءُ للقبلة فيها فمٌ
حلوٌ، وللّهوِ بشعر يدُ
أسألُها عنها فيحتلني
من الزوايا طيبها الأجعدُ
ورُبَّ أشياءَ على بكمها
أكرم بوحاً من فمٍ يُسْعِدُ[1]

---

(١) رندلى.

القمر

من روابينا القمرْ
جاءَه، أم لا، خَبَرْ؟ . . .
جايَلَتْهُ رندلى،
ودُمى الحُسْنِ الأُخَرْ
طال ما فاجأنَهُ
حافياً فوق الزَّهَرْ
مزّقَتْ من ثوبه
نَزَواتٌ لا تَذَرْ
هُمَّ، ما هُمَّ، ومِنْ
غزلنا يُكسى القمرْ
العذارى، حولَهُ،
في الرّبى عِقْدُ شَرَرْ
ضحكةٌ طافرةٌ
ونشيدٌ في الأثرْ
والمساء المنحني
بعضِ هاتيكَ الصُوَرْ
ذاهلٍ، شالَ به
صوتُ نايٍ مُبتكَرْ
والروابي نهضتْ
فوق تجوابِ النظرْ
يا ترى العُمرُ قمرْ؟ . . [1]

(١) رندلى.

شال

مُرخىً على الشعر شالْ
لِرندلى
هلا، هلا
به، بها، بالجمالْ

* * *

مَنْ؟ يا حَبابَ الكؤوسْ
مَنْ جمَّلَكْ
مَنْ فصَّلَكْ
حلواً، كحُلُمِ العروسْ؟...

* * *

لِمْ ثنيةٌ تشتكي
ثم تغيب؟..
هِمْ، يا حبيبْ،
بلونيَ الليلكي

* * *

هِمْ، لا تقرِّبْ يدا
هِمْ بالنظرْ
أبقى الأثرْ
ما لم يزل موصَدا

* * *

يا طيب شالٍ تُلَمْ
عنه النجومْ
وبي هموم
لأنْ يُرى أو يُشَمْ!

* * *

قيَضَ لِي موعِدُ
في ظلِّ شالْ
تُرى الخيالْ
سُكنى ومستنجَدُ؟

* * *

ما لي سألتُ الزَّهَرْ
عن منزلي؟ . .
فقيل لي:
هناك، خلف القمرْ(1)

---

(1) رندلى.

نجوى القمر

يا مرحباً بالقَمرْ
في الموعد المنتظرْ
بين الربى والغَمامْ
دنياكَ، مذ تبسِمُ،
قيثارةٌ، تحلَمُ
سكرانةٌ من غَرامْ

* * *

من أينَ، ياذا السُّرى
منِ عندها يا تُرى
خبرْ وهاتِ اليقينْ
يا هل تَرى، لم تزلْ
سكرى بتلك القُبَلْ
سكرى براها الحنين؟...

* * *

يا رَغدَهُ موعِدا
يملأ مني الغدا
ذكرى ارتياحٍ وطيبْ
أوانَ ـ ما أجملا! ـ
تضمني رندلى

وما سواك الرّقيب

* * *

قلْ، يا رفيق السَمَرْ،
هل للهوى من أثرْ،
لولاك في العالمينْ؟
داعبْتَ هذا الفَنَنْ
أيقظتَهُ للحَسَنْ،
علّمتَه أن يلينْ

* * *

ضؤكَ، والأنجمُ
قصرٌ به ننعمُ،
فاسبحْ بنا في الخيالْ
ابرَحْ حدودَ الزمنْ
واهبطْ بنا في عَدَنْ
حيث المنى والجمالْ

* * *

وافرشْ دروباً لنا
في عطفة المنحنى،
بالورد، بالياسمينْ،
يا قمري، يا قَمَرْ
ما غيرُنا في البشرْ،
ما غيرُنا الساهرينْ(١)

---

(١) رندلى.

يا حلو إن غداً رجعت

يا حُلْوُ، إن غداً رجعتْ
ترمي إلى الشباك بالزهَرْ
وما فتحتُ، لا تخلني ذلك الليلَ فزعتُ
أو ما سمعتْ
أو أنني مازلتُ غضبى، صِغتُ من حَجَرْ
كلّا، وإنما أخافْ
والقمرُ المسلطَنُ انحدرْ
لا أن ترى قميصي الشفافْ
بل أن يرى ـ ويغمز ـ القمرْ[١]

---

(١) أجمل منكِ لا.

بقصرنا سوف يمر الشاعر

- بقصرنا سوف يمرّ الشاعرْ!
ما أرتدي، بالله، يا مرتا؟
فسطاني التفتا؟
ذاك الربيعيّ البديعَ الباهر؟
وباليد اليُسرى
أسانِد الخصرا
أعلّي قليلاً لَفْحَ صدري الضامرْ؟
بقصرنا سوف يمرّ الشاعرْ!
ولن يُهَمّ لأبي المَلْكِ
للبحر، للفُلْكِ
مرتا، اضفري شعري الطريف الساحرْ
غدائراً خمْسا،
مرتا، اضفري الشمسا
كأنني أغنية للناظرْ
قلبي رمّانَهْ
من ألف ليلة وليلهْ
بالجوهر الأحمر ملآنهْ
يا ويلَهْ يا ويلَهْ

ـ وقصرُنا يسمَرْ
والرّيح فتّانهْ
دعجاءُ هيمانهْ
إن لم يفقّىء ذلك الجوهَرْ. . .
بقصرنا سوف يمرّ الشاعرْ!
مرتا! افرُشي بالزهر ذي الخصرِ
بالزنبقِ النضرِ،
كلّ ممرٍّ من مزار الزائرْ
عساه، إن يَعْبُرْ
في مخدعي، يذكُرْ
أنيَ خصرٌ تحت رِجْلَيْ عابر![1]

---

(١) أجمل منكِ لا.

إنسَني . . .

حببتَني أنتَ؟ الا حُبّا . . .
أمّا أنا فارددُدْ ليَ القلبا!

أمسِ «أنا أنتَ»؟ . . . انسَها وانسَني
كلمةً مِن شفتي التَعبى

وهل تُراني قلتُها؟ هل تُرى
أسبلتُ فوق الدمعةِ الهُدْبا؟

إنْ صحَّ أوجِعْني بتردادها،
أولا فلا جرَّحتني عَتْبا . . .

وقُلْ وقُلْ، عليَّ على ذكرها
ابكي البُكاءَ الطيِّبَ العَذْبا . . .

تَعشقَ أنت السهلَ . . . دعني أنا
أحِبُّ حُبِّي الصامتَ الصَعْبا!

ما عدُت، ما عدتُ . . . فقم، يا الذي
أعبدُهُ، نُمزِّقُ الكُتْبا . .

ارأفْ بي حُبُّكَ لي لاعباً
وقولُهم عنيَ: «ما أغبى!»

أنت، تَنَقَّلْ أنت من وردةٍ
لوردةٍ تفتّحتْ لُبّا . . .

وأَنا أَنساكَ بأشهى . . . أَنا
النِسيانُ قد علّمتُهُ الحُبّا![1]

(١) دلزى.

أحبَبتُكِ

أُحببتُكِ لَمْ يدرِ الوردُ...
والعُقدةُ والشَّعْرُ الجَعْدُ...

والزَّنْدُ النازلُ... قلتِ الشمسُ
تَتالتْ وانسكبَ النَدُّ...

لم تدري أنتِ... وقد تدرينَ
وأوعدُ... يخلُقني الوعد...

حقاً أنا قلتُ: «سأنظِمُ فيكِ»؟
كذَبتُ كذَبتُ ولا بُدُّ...

شِعْري ونجومُ سماً وجمالُكِ؟...
ويحي! الكونُ لهُ حدُّ!

أنْ أُغريَ فاكِ وزهرَ صِباكِ
ويُكتَبُ بالقلمِ القَدُّ...

من يَحبِسُ في الكلماتِ الريحَ
وشيئاً أقربُهُ البُعْد؟

قلبي بعضق مِن أُغنيَةٍ
لا قَبْلُ الحُسْنِ ولا البَعْد...

غُلِّي غُلِّي... ما كانَ المَهْد
ألذَّ ولا كانَ المجدُ!

ما الشِعْرُ وحُسْنُكِ لم أشربْهُ؟
الشِعْرُ العزلةُ والبَرْدُ
ويكونُ الكونُ إذا نَيسانُ
الخصر هوى... وأنا الزَنْدُ...[1]

(١) دلزى.

خُبِّرتُ عَنكِ...

خُبِّرتُ عنكِ... سكنتِ قال...
كما الغمامةُ، بيتَ شِعْرِ...

وقرأتُ بعضاً منهُ... تيَّمني...
ضممتُ عليهِ سِرِّي!

أمَّا البقيةُ فانتست...
ورقٌ بكى لِفراقِ زَهْرِ!

أنا ذا أُفَتِّشُ... هل عَثَرْتُ؟
هل انتشيتُ بفوحِ عِطْرِ؟!

وتلوِّحينَ: «أنا هُنا...
أنا عنكَ مِنْ وَلَهٍ أُسَرِّي»

أوَّاه! بيتٌ أنتِ فيهِ،
أأكتفي منهُ بِشطرِ؟

أنساهُ... أفنىَ في صدَاهُ،
كما الضبابةُ غِبَّ فجرِ...

يا ضائعاً من بيتِ شِعْرِ،
لُمَّ نفسَكَ... لُمَّ عُمْري!

أنا أَنتَ، ما بسوايَ قصرُ
مليكةٍ... أو سِحْرُ سِحْرِ...

بعضٌ؟... أنا كجَمامِ كأسٍ
فاترِغْ... أو لا فَمُرٌّ...
السِحْرُ بيتُ الشِعْرِ قُصَّبَ
صخْرُهُ جمراً بجمر،
وطيبُ تسكنُهُ التي
كالطيف أكسو أوْ أُعرِّي... [٢]

(١) دلزى.

الثلاثُ القُبَل . . .

الثلاثُ القُبَلُ اشتقتُ إليهنَّ . . .
عُودي، أستعِذْهن طِوالا . . .

كانتِ الأُولى اغتصاباً، مثلما
نقرةُ العودِ إذا مالتْ ومالا . . .

آهِ والثِنْتانِ قَطْفٌ وجنىً
وتقاسيمُ تُداوي وليالَى . . .

ما على ثغري؟ أأعنابُ الضُحى
أمْ ثواني العُمْرِ راحتْ تَتتالى؟
قُبَةٌ شُكّتْ نُجيماتِ رضىً . . .
أنا أغتالُ النُجيماتِ اغتيالا . . .

رُبَّ حبّاتِ جَمالٍ عشتُها
كنَّ فردوسيَ . . . أو شيئاً خِيالا . . .

أنا والكونُ؟ . . . دعي بل أنا والرأسُ
أرميه على صدري دلالا . .

غَزَلُ الكونِ قديمٌ، فاتركي،
أنا فوق القِدْمِ والحِدْثِ مَقالا

بي، بقلبي، بالروابي انتشري
كأخيّاتي الفرَاشاتِ الكسَالى . . .

أنتِ آنُ الوَحْيِ ، لا قبلُ ولا
بعدُ، أحلى ما انتهى الآنُ ضلالا . . .

كلُّ بيتٍ من قصيدٍ طافَ بي
طيفُهُ، ما كانَ إلاَّكِ جمالا . . .

مَن أنا، والعِطْرُ من صوبِكِ مَعْ
ريشتي يجري؟ أنا الشِعْرُ تعالى![1]

---

(١) دلزى.

حَديثُ الوَرد

تُرى كنتِ؟... لقد طمأنَ
لا يَكذِبُني الوردُ...

وعرَّجتِ على أهواءِ
زَنْدي... وانطوى الزَنْدُ...

صحيحٌ؟ هذهِ لم يروِها
الآسُ... ولا الرندُ....

أنا الراوي! ولا أذكُرُ
ما الصِدقُ وما الوعد...

ـ لعوبٌ أنتَ، قال الوردُ،
صعبٌ مثلما الوجْدُ!

ـ أنا؟ دعني أُغنِّيها
كما ما مادتِ المُلْد:

«بلى كُنتِ. اسألي شِعْري،
وشِعْري السيفُ والغِمْدُ،

فشطرٌ وحيُهُ أنتِ،
وشطرٌ أنتِ والمجدُ!»

ويُخفي الوردُ من آهٍ
كجُرْحِ الطيبِ تمتدُّ،

يُغنِّي: «الحسنُ لا همَّكَ
وصلٌ منه أو صدٌّ؟

ومن كانتْ وما كانت،
لذيذٌ أنها البُعْد...

وهَبْها خاطراً... فاشربْ
على مَنْ لم تَكُنْ بعد!»

كفى، يا وردُ، هل يُنسى،
وقد أوجعتْه، القدُّ؟

صِباها... الأنملُ العَشْرُ...
وغضبانٌ اسمُهُ النهد...

كما السكرةُ، لا لم تَعْدُ
سَكْبَ الوهمِ، لم تَعدُ...

لقد عُدَّتْ، إذا عُدَّتْ،
غرامي... وانتهى العدُّ...[1]

---

(١) دلزى.

رَقصْ..!!

أضيعُ... على ذراعيَ ليَّ خَصرِ...
وأرقصُ والرياحُ وأنتِ قصري...
إلى أينَ الرحيلُ؟... سلِي شِراعاً
وراءَ جفونكِ الفَرِحاتِ يجري...
أُجذِّفُ فوقَهُ ويداكِ طَوْقي...
وأحيا من عبيرِهما بسِحر...
على مَهَلٍ وقوعُكِ! أُخلِّ
عليكِ يدي تُبعثِرُ غُصْنَ زَهْر...
فديتُكِ، لا انعطفتِ عليَّ. عُمْري
صِباكِ، وما تبقّى ليسَ عُمْري!
جمالُك لي، كما العنقودُ، قَطْفٌ...
وكأسي جسمُك الداني، وخمري...
وبَعْدُ هناك... حيثُ له انتهاءٌ
رنينُ الأرض؟... خلِّيني وسِرِّي...
أنا سِرِّي كم الأطيارُ، تحيا
لنا وبِنا تموتُ، وليسَ تدري!
حبَتُكِ لي عروساً جمَّعتها
رياحُ صباً نَزَلنَ ببعضِ عِطر...

فقلن له: «تُرى وُجِدَتْ... وأنّى؟»
فقال: «أظنُّ... فوق جَنَاحِ نَسْرِ!...»

على مَهَلٍ... تململَ بي غرامي
يقولُ: «وقعتِ واستغواكِ صدري».

وجُنَّ الرقصُ جُنَّ.. جرى شِراعي
يَخُطُّ، كثوبكِ الغجَريِّ، بَحري...

ويغرَقُ بالحرير وبالتثنّي
وبالصُبحين: بلّورٍ ودُرٍّ...

ضممتُكِ خوفَ تَخطَفُكِ الثواني...[1]
وحولي الريحُ تقصِفُ أو تُعرّي!...

---

(١) دلزى.

كأنكِ أغنيَة. . .

كأنّك أغنِيَة. . . وأطير أنا. . . .
والزمانُ بنا يَركُضُ. . .

بِخصرِكِ مبدأُها. . . ثم تَعلو
وتعلو. . . إلى هُدُب يَمرَضُ. . .

مُروراً بدحرجَة الكُرَتَين
وراءَ القميص الذي يَنْهَضُ. . .

كأنّك أغنيَةٌ. . . كيف بُحتُ
أنا؟ كيف تيّمني الأبيض؟

أخُوذاً من النحر بعضاً. . . وبعضاً
مِن الشمس زارتْه تَستقرِض. . .

وَتيّمني أسودٌ من غدائِرَ
تُعطي الوجودَ إذا تَرفُض. . .

فكيف إذا انحَلَّ ذاك الجمال. . .
وكالليل ضَجّت له أغرُض؟. . .

ولم يَبقَ إلأّه شَعْرٌ يلُفُّ
عليّ. . . فأخلَقُ أو أُنقَضُ. . .

لأنّكِ أغنيَةٌ أنا نايُ
النجوم على رَقْصها أُفرَض. . .

وتُولَع بي أخَرٌ أغنياتٌ
فألوي... ومِن كِبَر أُعرِض...

لِبيتِ قصيدٍ أنا... أو لِحرفين
عنكِ... هُما الرَوض إذ يُروِض...
وحُسنُكِ آخذُه بالجفُون
وأُغمض، لا مُفْلِتاً، أُغمض!...[1]

---

(١) دلزى.

الفهرس

لا شكَّ أنَّ القارىء العربيَّ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الاطِّلاع على تراثه الفكريِّ العظيم المتمثِّل بالأدب والتاريخ والفلسفة والفقه وعلم الكلام وغيرِ ذلك من ميادين الثقافة والمعرفة.

وبما أن تحصيل هذه المعرفة الموسوعية المتكاملة لا يكادُ يُتاحُ إلاّ لأفراد قلائل من ذوي العقول المتميِّزة والبصائر المتوقِّدة، كان لا بدَّ لنا من تقديم هذا التراث بشكلٍ مختصرٍ وجامعٍ في الوقت نفسهِ، بحيث يوافق هذا الإطارُ المقْتَرَحُ أكثريةَ القرّاء العرب، وخاصة طلابَ المراحل الثانوية والجامعية. فكانت هذه السلسلةُ عن أعلام الأدب من نثر وشعر، تولّى كتابتها مجموعةٌ من الاختصاصيين الذين تَحرّوا فيها السلاسةَ في الأسلوب والعمقَ في التحليل والاختصارَ في المعلومات، بما يحقّق الهدفَ المنشودَ من إصدارها.

كما نشير إلى أننا - بالإضافة إلى هذه السلسلة التي بين يديك عن أعلام الأدباء والشعراء - أصدرنا، وسنصدر تباعاً إن شاء الله مجموعاتٍ أخرى عن أعلام الفكر العربي والغربي في مختلف الميادين المعرفية، بنفس الأسلوب والمنهج اللذين اتبعناهما في إصدار هذه السلسلة. والله من وراء القصد.

وكيل عام في جمهورية مصر العربية

مؤسسة الخلود - مركز الكتاب العلمي - مدينة نصر تلفون ٢٦٢٦٨٤١